بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدّمة

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الحمد لله الذي فضَّلنا بالقرآن على الأمم أجمعين، وآتانا به ما لم يؤتِ أحداً من العالمين، وأصلِّي وأسلِّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. *وبعد:*

فإن القرآن الكريم هو أنفس ما توجّه له النظرات، وتنفق فيه الأوقات، فقد جعله الله معجزة رسوله العظمى، وجمع فيه أصول الدين وفروعه، وفّى بحاجات البشر في مختلف العصور في أسلوب معجز مبين، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وكان من ثمرة تدارس القرآن ومحاولة الإلمام بكلِّ جوانبه ألوان التفسير التي منها: التفسير الموضوعي حيث فتح آفاقاً واسعةً في التفسير، وأوضح بجلاء كيف حوى القرآن شتى العلوم، ولما كان القرآن الكريم قد نزل لهداية الإنسان وتوجيهه في عمارة دنياه وآخرته فإنا نجده قد أفاض الحديث عن هذا المخلوق العجيب سواء الحديث عن أصل خلقته بالحديث عن آدم كيف خُلق وقصته في الملأ الأعلى، أو الحديث عن طبيعته وصفاته العامة، كضعفه، وعجلته، وظلمه، وجهله... أو عن تكريمه وتسخير المخلوقات المختلفة له، أو دعوته للإيمان بشرع الله بالترغيب والترهيب.. وغير ذلك من جوانب الموضوع التي ذكرت جوانبها في المؤلفات التي أفردت في ذلك مثل كتاب (**الإنسان في القرآن**) لعباس محمود العقاد، (**الإنسان في القرآن**) لطفي الصباغ، (**القرآن وقضايا الإنسان**) لعائشة عبدالرحمن «بنت الشاطىء»، (**الإنسان وجوده وخلافته في الأرض**) للدكتور عبدالرحمن المطرودي، وقد كان العرض في هذه الكتب للإنسان بشكل عام في النقاط المذكورة، وفي هذا البحث سيكون التركيز على الصفات الفطرية في الإنسان من خلال قصة آدم عليه السلام.

وقد يكون مجال دراسة الصفات الفطرية للإنسان في علم النفس، إلا أنه لما كان القرآن الكريم قد وفَّى بحاجات البشر وهو دستور الحياة وبه من كل علم، فإن الدراسات النفسية بحاجة إلى دراسات قرآنية تساندها وتصحِّح مسارها. لأن الله هو خالق الإنسان وهو أعلم به ظاهراً وباطناً، وما ذكر فيه هو حقيقة ويقين لا اجتهاد وظن، وبالتالي فإن الدراسات القرآنية في هذا المجال سوف تثري الموضوع من جهة، وتصحِّح مسارها من جهة أخرى.

وقد استعنتُ في ذلك بالدراسات والأبحاث في علم النفس من باب الاطلاع على ما كتب في الموضوع من دراسات وأخذ الفائدة فيما يتفق مع ما نتوصل إليه من الهدايات القرآنية لا أن تكون هي المعتمدة في اختيار مصطلحات البحث وتقسيماته. وذلك لأن الدراسات النفسية التي تدرس

اليوم معتمدة في غالب نتائجها على بحوث أجريت إما على حيوانات فطبقت نتائجها على الإنسان، أو على الملاحظات المجردة لتصرفات الناس في مجتمع معين فخضعت لثقافات وفلسفات وتصورات تلك البيئة. وهي لا شك لا يمكن تعميمها على البشرية كلها على أنها خصائص عامة للإنسان[1].

ومن جهة أخرى فإن تلك الدراسات بينها اختلاف كبير في دراسة السلوك الإنساني وتحليله.

وهذا الاختلاف يبيِّن أن تلك النظريات في تفسير السلوك الإنساني وإن أسهمت في دراسة النفس الإنسانية إلا أنه ليس مسلماً ولا قطعياً الأخذ بجميع نتائجها على أنها الحقيقة التي تطابق الواقع. ولأن الهدف من دراسة النفس الإنسانية الوصول إلى فهم أدق ومعرفة أعمق بالنفس الإنسانية فإن خير معين على ذلك استجلاء الهدايات القرآنية في هذا الموضوع، فهو منزل من رب العالمين الذي خلق الإنسان ويعلم ظاهره وباطنه، وبالتالي فإن أي آية تتحدث عن طبيعة الإنسان من مختلف جوانبه تمثل حقيقة نهائية ووصفاً صادقاً لا تجربة قد تصدق نتائجها وقد لا تصدق.

وعليه، فإن الدراسة والمنهج لن تكون حسب المصطلحات والتقسيمات الموجودة في كتب علم النفس لأن علماء النفس هم أيضاً في حالة تطوير وتجدّد، حيث تظهر النظرية تلو الأخرى في تصنيف الدوافع المحركة لسلوك الإنسان، فقال بعضهم بالدوافع الفطرية والمكتسبة، وقال بعضهم بالدوافع الأولية والدوافع الثانوية، وقال البعض بالدوافع المباشرة وغير المباشرة[2].

---

(١) راجع في ذلك مفاهيم علماء النفس (دراسة وتقويم) رؤية إسلامية؛ د. هشام البدراني ص ١٣٥.

(٢) أسس الصحة النفسية؛ د. عبدالعزيز القوصي ص ٦٢.

وفي البحث آثرت استعمال (الصفات الفطرية) دون ما يقابلها من مصطلحات كالصفات الغريزية أو الأولية لأنه التعبير القرآني في هذا الموضوع. وبالرغم من أن القرآن ذكر هذا المصطلح في أمر محدد وهو كون الدين هو الفطرة كما في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ..﴾ [الروم: ٣٠]، إلا أنه بالرجوع إلى المعنى اللغوي وعلاقته بهذا الأمر تبيَّن صحة استخدام هذا المصطلح فيما عداه من صفات الإنسان الأخرى سواء كانت تتعلق بمطالب الجسد أو تتعدى ذلك للصفات النفسية.

فالفطرة كما يذكر ابن الأثير: «من الفطر وهو الابتداء والاختراع والفطرة كالجِلسة والرِّكبة، والمعنى أنه يولد على نوع من الجبلة والطبع...»[(١)].

وكذا السجية هي الطبيعة والخُلُق، وأكثر ما تستعمل ذلك فيما لا يمكن تغييره[(٢)].

ويقول ابن عطية في تفسير ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوم: ٣٠]: «والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة (أي الفطرة) أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدة مهيأة لأن يميز بها..»[(٣)].

ويقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية: «الفطرة أصله: اسم هيئة من الفَطْر وهو الخَلْق مثل الخِلقة كما بيَّنه قوله ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوم: ٣٠] أي جبل الناس وخلقهم عليها أن متمكِّنين منها»[(٤)].

وبالتالي يتلخص المقام أن المقصود بالفطري هو ما خلق عليه الإنسان

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٥٧/٣).
(٢) لسان العرب (٣٧٢/٤).
(٣) تفسير ابن عطية (٢٥٨/١٢).
(٤) التحرير والتنوير (٩٠/٢١).

فوجدت فيه الصفة باعتبار كونه إنساناً من ذرية آدم، لا من التأثر بالمحيط الخارجي بالاكتساب.

أما عن استخدام الصفة دون غيرها من المصطلحات كالدوافع والحاجات والنزعات، لأن هذه المصطلحات، وإن كانت صحيحة في مفاهيمها، لكنها مبنية على دراسات خاصة في علم النفس تصف السلوك من حيث أسبابه العضوية إلى حين خروجه في الحيِّز الخارجي من حيث التعبير عنه، وهذا ليس مجال دراسة البحث. ومن جهة أخرى فليست كل الصفات المستنبطة يصدق عليها مصطلح الدافع. أما الصفة فهي تعني الخصلة والسمة، وهي أعمّ مما ذكر، فالمقصود هنا إثبات وجودها وصحة تصنيفها بين الفطري والمكتسب لا التحليل النفسي الدقيق لكلِّ صفة. ولذلك فلا غنى لنا عن استخدام تلك المصطلحات في ثنايا البحث، أما العنوان الرئيسي للبحث فالأفضل استخدام المصطلح الأعم.

أما عن الاقتصار على الصفات الفطرية دون المكتسبة فلأن الدراسات النفسية وإن كانت اتفقت في فطرية بعض الصفات خصوصاً ذات العلاقة ببقاء الإنسان كالأكل والشرب والجنس إلا أنها مع تطور نظرياتها في خلاف في تقسيم الكثير من الصفات حتى غلب تصنيف الكثير من الصفات النفسية والاجتماعية مع المكتسب.

أما حين نستخلص صفات الإنسان من خلال قصة آدم فهي قرينة قوية على فطريتها، لأن آدم لم يهبط بعد إلى الأرض ولم يخالط بشراً حتى يكتسب صفات مع الاحتكاك بالآخرين وهو أبو البشر. وعليه، فإن كل ما يمكن استنباطه من هذه القصة هو فطري من هذا المنظور، بل هو إخبار للبشرية عن حقيقة نفسها وما تنطوي عليه من بعض الحقائق.

وقال صاحب المنار عند بدء تفسير آيات قصة آدم في سورة الأعراف: «هذا شروع في بيان ما أشرنا إليه من خلق أصل هذه النشأة الآدمية وعلاقتها بالأرواح الملكية والشيطانية وما يعرض لها من موانع الكمال بإغواء عدو

البشر الشيطان ويليه ما يترتب عليه من الهداية والإرشاد إلى ما يتقي به ذلك من الإغواء والفساد»[1].

وقال ابن عاشور: «... لأن الأحوال التي تصاحب التكوين تكون إشعاراً بخصائص المكون من مقوماته..»[2].

ولا يعني هذا إلماماً بكل الصفات الفطرية للإنسان المذكورة في القرآن لأن البحث اقتصر على قصة آدم عليه السلام، وبالتالي فإن الصفات المذكورة في القرآن في غير هذه القصة ليست محلَّ الدراسة في هذا البحث.

كما ينبغي التنويه إلى أمر بالغ الأهمية هو أن أي تصنيف يوضع لصفات الإنسان ودوافعه لا يعني ذلك مهما كانت صحة هذا التقسيم والتصنيف أن يكون حاداً متميزاً بحيث ينفصل تماماً عن الصفات والدوافع الأخرى في الأسباب والنتائج والتعديل لأن الإنسان روح وجسد يعملان في تكامل، فقد يظهر السلوك بتحريك أكثر من دافع وهكذا[3].

وبالتالي فالهدف من الدراسة ليس عزل تلك الصفات والدوافع عن بعضها الآخر، وإنما التعرف على طبيعة كل صفة بعد إثبات وجودها فطرة، ومن ثم كيفية استغلالها للرقي بالسلوك الإنساني.

منهج البحث:

من خلال ما سبق ذكره في المقدمة يمكن تلخيص منهج البحث في الأمور التالية:

١ ـ موضوع البحث دراسة قرآنية لصفات الإنسان الفطرية في قصة آدم عليه السلام، وبالتالي فالحكم في مسار البحث هو الهدايات القرآنية للآيات

(١) تفسير المنار (٣٢٨/٨).
(٢) التحرير والتنوير (٣٢٢/١٦).
(٣) انظر في هذا الموضوع: البناء النفسي في الإنسان؛ د. حمدي الفرماوي ص (١١١ ـ ١١٢).

الواردة في ذلك دون الالتزام بنظريات أو ترجيحات الدراسات النفسية، وكذلك الأمر في التقسيمات والمصطلحات كما سبق ذكره في المقدمة.

٢ ـ الصفات الفطرية للإنسان التي يمكن استنباطها من القرآن ولم تذكر في قصة آدم ليست محطَّ الدراسة الحالية، وبالتالي فالبحث ليس عاماً في صفات الإنسان الفطرية وإنما اقتصر على الوارد في قصة آدم.

٣ ـ منهج البحث في كل صفة أن يصدر الحديث بالآية أو الآيات التي تمَّ استنباط الصفة منها من آيات قصة آدم ثم ذكر وجه الدلالة منها، ومن ثم إعطاء نبذة عامة عن تلك الصفة بالاستعانة بآيات القرآن الأخرى التي تحدثت عن هذه الصفة في غير قصة آدم. مع التركيز على الجوانب الإيجابية في كل صفة وكيف عالج القرآن الجوانب السلبية منها.

وبالتالي فليس المقصود إعطاء دراسة متكاملة لكل صفة لأن هذا سيخرج البحث عن مساره وهدفه.

٤ ـ تخريج الآيات بعزوها لسورها.

٥ ـ تخريج الأحاديث من مظانها، فما كان في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت به في التخريج وهو حكم على صحته، وما كان في غيرهما حاولت تتبّع تخريجه من السنن وغيرها مع الحكم عليها ما أمكن.

٦ ـ تفسير غريب القرآن حسب الحاجة.

٧ ـ خاتمة فيها أهم النتائج.

تمهيد

وردت قصة آدم عليه السلام في سبعة مواضع في القرآن[1] بين سور مكية وأخرى مدنية، **فمن المكي** سورة: الأعراف (١١ ـ ٢٨)، الحجر (٢٦ ـ ٣٤)، الإسراء (٦١ ـ ٦٥)، الكهف (٥٠)، طه (١١٥ ـ ١٢٤)، ص (٧١ ـ ٨٨). **ومن المدني**: سورة البقرة (٣٠ ـ ٣٩). وفي هذه السور صرح بقصة آدم عند بدء خلقه وما أعقبه من أحداث قبل إهباطه إلى الأرض.

ومعلوم أن المنهج القرآني في أسلوبه وخاصة قصصه لم يكن هدفه المتاع الفني فحسب، بل له الكثير من الأهداف والفوائد التي بناء عليها أمرنا بتدبُّر القرآن للتذكر والاعتبار بما ورد فيه من مواعظ وفوائد وحقائق وهدايات. فهو يقصُّ قصصاً إلا أن له موقعاً أريد ترتيب نتائجه عليه.

وقد تكررت هذه القصة شأنها شأن بعض قصص القرآن التي تكررت والتي لم يكن تكرارها عبثاً وإنما كان ذلك لأهداف، منها:

- الدلالة على أهمية هذه القصة لأن تكرارها يدلُّ على العناية بها. وتأتي الأهمية من أهمية الموضوع حيث تحدثت عن آدم الذي هو أبو البشرية والذي نزل القرآن أصلاً لهدايتهم، فهو إعلان لهم عن أصل خلقهم ومكانتهم على الأرض وماذا يراد منهم وإلى أين تكون نهايتهم، فلا جرم أن تكون من أهم القصص التي يراد منا نحن البشر العلم بها والاعتبار من أحداثها.
- تفاوت عرض القصة بين الإيجاز والإطناب في المواضع المختلفة

(١) انظر: تفسير الرازي (٢/٢١)، تفسير ابن كثير (١١٣/٥).

فيذكر في بعضها ما ليس في الآخر حتى لا تملَّ للفظها ولا لمعانيها من جهة، وللمناسبة مع سياق كل سورة وردت فيها القصة من جهة أخرى، وهذا شأن القصص القرآني بشكل عام.

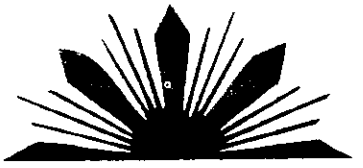

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الفصل الأول:

صفات تتعلق بالحاجات الأولية

ونعني بالأولية: تلك التي تتوقف على إروائها حياة الفرد أو الجنس أو النوع[1]. ويكون في إشباعها تحقيق لحاجات الحفاظ على الذات وبقاء النوع.

ونعني بالحاجة: اختلال العضوية وما ينتج عن ذلك من نتائج، كجفاف الحلق في حالة العطش[1]، فهي تتعلق بالبدن، ولها الأولوية في الإشباع لتوقف الحياة عليها. يقول الله ﷻ: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ...﴾ [طه: ١١٧ ـ ١٢٠].

هذه الآية الكريمة أتت على أمور أربعة لا يمكن استمرار حياة الإنسان إلا بحصولها. قال الزمخشري: «الشبع والري والكسوة والسكن هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان»[2].

فالحاجة إلى الطعام مستفادة من قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾، وحاجته إلى الملبس مستفادة من قوله: ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾ لتقيه بذلك تقلّبات الجو من حرٍّ وبرد.

---

(١) علم النفس العام ص ١٣٧.

(٢) الكشاف (٩٢/٣).

وحاجته إلى الشرب مستفادة من قوله: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا﴾، وحاجته إلى المأوى والمسكن مستفادة من قوله: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾. ومعنى تضحى كما قال ابن قتيبة: «أي لا يصيبك الضحى وهو الشمس»(١). وقال أبو عبيدة: «لا تضحى للشمس فتجد الحر»(٢). وأصله من الظهور يقال: ضحا الطريق يضحو ضحواً إذا بدا لك وظهر(٣).

فتبيَّن من معنى الضحو أنه تواجد الإنسان في مكان ظاهر من الأرض، غير مستتر في بناء أو كهف أو أي شيء قابل لاتخاذه مأوى وسكناً.

ونعود فنقول أن الآية أتت على الدوافع الفطرية للإنسان على مرّ العصور مهما اختلفت الحضارات ومهما تنوَّعت المجتمعات. يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية: «جمع له في هذا الخبر أصول كفاف الإنسان في معيشته إيماء إلى أن الاستكفاء منها سيكون غاية سعي الإنسان في حياته المستقبلية لأن الأحوال التي تصاحب التكوين تكون إشعاراً بخصائص المكون في مقوماته كما ورد في حديث الإسراء من توفيق النبي ﷺ لاختيار اللبن على الخمر فقيل له: **«لو اخترت الخمر لغوت أمتك»**(٤).

وقد يتبادر إلى الذهن أن الأولى جعل الحاجة إلى الشرب مع الحاجة إلى الطعام في شيء واحد لا ينفصل. لكن ما لاحظناه في الآية يلفت الانتباه في قطع النظير عن نظيره، بأن جعل حاجته للملبس والطعام متعاطفان في آية واحدة، وحاجته إلى المشرب والمسكن متعاطفان في آية واحدة. بينما يكثر عطف الطعام على الشراب معاً، وعطف المسكن على الملبس معاً.

---

(١) تفسير غريب القرآن ص ٢٨٣.
(٢) مجاز القرآن (٢/٣٢).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (١١/٢٥٤).
(٤) التحرير والتنوير (١٦/٣٢٢).

وهذه النقطة تحدَّث عنها المفسِّرون باستفاضة بحيث أجلوا بعض فوائد الترتيب من هذا النظم، والتي منها:

١ ـ ما قاله كثير من المفسرين منهم أحمد بن المنير في حاشيته على الكشاف حيث قال: «في الآية سرٌّ بديع في البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير، وذلك أن قطع الظمأ عن الجوع والضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب والغرض من ذلك: تحقيق تعداد النعم وتصنيفها، ولو قرن كلاً بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة»[(١)].

٢ ـ زيادة التقرير بالتنبيه على أن نفي كل واحد من الأمور المذكورة مقصودة بالذات مذكورة بالأصالة لا أن نفي بعضها مذكور بطريقة الاستطراد والتبعية لنفي بعض آخر[(٢)].

وعليه نفرد كلاً منها بشيء من التفصيل:

أولاً: حاجة الإنسان إلى الطعام:

يعتبر هذا الدافع من أهم الدوافع الفيزيولوجية الأولية الضرورية لحياة الإنسان، وذلك لتعلّقها ببقاء الإنسان على قيد الحياة وأثرها على حفظ الذات، ولذلك فقد خضعت لكثير من التجارب والبحوث والدراسات في ميدان علم النفس. وسوف نعرض صفحاً عن تلك التجارب التي أجريت على الحيوانات والحشرات، ونركز على الدراسات والتجارب التي أجريت على الإنسان، هذا مع إيماننا باشتراك الإنسان مع الكائنات الحية في هذا الدافع لتعلّقه بالحفاظ على الذات. لكن الإنسان هو مجال البحث الحالي والتعامل معه يختلف عن غيره من الكائنات.

هناك بحث أجري على مجموعة من الشبان الأصحَّاء فقد غذي أفراد

---

(١) الكشاف (٣/٩٢).

(٢) تفسير أبي السعود (٦/٤٧).

المجموعة تغذية جيدة لمدة ثلاثة أشهر، أعقبتها فترة ستة أشهر من الصوم اعتمدوا فيها على أقل القليل من الطعام الذي يكاد يسدُّ رمقهم. وقد وصفوا حالاتهم أثناء فترة الستة أشهر من الصوم بعدم القدرة على ضبط النفس وكبح جماح الغضب والتردُّد والقلق والحساسية الزائدة وعدم القدرة على تركيز الانتباه(١).

ومنه يتضح حاجة الجسم للطعام للقيام بوظائفه الحيوية المعتادة مثل أداء العبادات المختلفة، تحصيل قوته، وكذلك كل ما يتعلق بعمارة الأرض.

وقد يكون هذا مفسراً لنهيه ﷺ عن الوصال في الصوم(٢)، وكذلك فطره يوم عرفة عند حجه لتوفير الطاقة الكافية لأداء العبادات المتواصلة التي ندب إليها في هذا اليوم العظيم.

وقد أخطأ بعض الزهَّاد حينما بالغوا في التقليل من الطعام ظناً منهم أن ذلك فضيلة، قال ابن قدامة: «فالأولى تناول ما لا يمنع من العبادات ويكون سبباً لبقاء القوة، فلا يحس المتناول بجوع ولا شبع فحينئذٍ يصح البدن وتجتمع الهمة ويصفو الفكر... وقد بالغ جماعة من الزهاد في التقليل من الأكل والصبر على الجوع.. ومقام العدل في الأكل رفع اليدين مع بقاء شيء من الشهوة، ونهاية المقام الحسن قوله ﷺ: **«ثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»**(٣).

ولنا وقفة مع قوله تعالى في قصة آدم: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البَقَرَة: ٣٥] حيث دلَّت الآية على سعة المجال الذي يختار منه الإنسان طعامه

(١) علم النفس المعاصر في ضوء الإسلام؛ د.محمد محمود محمد ص ١٣٩.
(٢) الحديث أخرجه البخاري، كتاب التمني، باب ما يجوز من اللو، فتح الباري (٢٢٥/١٣) ص ٨٢.
(٣) مختصر منهاج القاصدين ص ١٧٧، والحديث أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل (٥٩٠/٤).

وكذلك كل شيء في حياته متعدد ومتنوع حيث وصف الأكل بالرغد. والرغد: الطيب الواسع[1].

ولو تأملنا تطبيق ذلك لبدا ذلك واضحاً في عدم اكتفاء الإنسان بتناول الطعام على حالته الخام التي وجد عليها، بل أخذ يتدخل بالصنعة في إعداده فاستخدم النار في استحداث طعوم جديدة ومتنوعة، وكل هذا استجابة لما في فطرته من التجدد والتنوع[2].

ويتعلَّق بهذا الموضوع أيضاً في الاختيار من الأطعمة ما يسمى بالجوع النوعي، والجوع النوعي: هو أن الإنسان يحتاج في نموه إلى البروتينات والدهنيات والنشويات والفيتامينات، فإن نقصت إحدى هذه المواد في الجسم أثار هذا النقص شهية الفرد لتناولها، وبالتالي فإن جسم الكائن الحي لديه من الحكمة في اختيار الأطعمة ما يغنيه عن وصايا خبراء التغذية[3].

ومن الملاحظ أن طريقة إشباع دافع الجوع والحاجة إلى الطعام يتحكم فيها عدة أمور منها العادة والعرف الاجتماعي ونوع الحضارة، فهي ذات أثر في إثارة دافع الجوع وفي طريقة تناول الطعام، ومقداره ومكانه ومواقيته.

وهذا ما يميِّز الإنسان عن الحيوان الذي يشترك معه في أصل الحاجة إلى الطعام، ولكن التعبير الذي يظهر فيه سدّ هذه الحاجة يختلف اختلافاً كبيراً، وينبغي تكريم الإنسان في كون الحقائق المتعلقة بهذا الموضوع ينبغي ألا تكون نتاج تجارب قد أجريت على الحيوانات كما تفعل كثير من الدراسات النفسية، بل لا بد وأن تكون متعلقة بالإنسان وما أودع فيه من صفات أخرى ترقى به عن مستوى الحيوان.

---

(١) مفردات الراغب ص ١٩٨.

(٢) انظر: دراسات في النفس الإنسانية ص ١٨٣ بتصرف.

(٣) انظر: أصول علم النفس؛ د.أحمد عزت راجح ص ٨٩ - ٩٠.

ثانياً: الحاجة إلى الماء:

الحديث عن حاجة الإنسان إلى الماء بشكل مستقل أمر اقتضاه فصل ذكر حاجة الإنسان إلى الماء عن حاجته إلى الطعام في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]. حيث أفادت الآية باستقلال هذه النعمة وهذه الحاجة الضرورية عن الطعام، ولذا لا يختلف أحد في أن حاجة الإنسان للماء أقوى من حاجته إلى الطعام، لأنه ثبت بالتجربة أن الإنسان يستطيع أن يعيش عدة أسابيع بدون طعام، ولكنه لا يستطيع أن يعيش بدون ماء إلا أياماً قليلة.

وليس أدلّ على أهمية الماء لجسم الإنسان مما أثبتته الدراسات العلمية من أن الماء يشكّل حوالي ثلثي وزن الجسم ويدخل في تركيب أنسجة الجسم بما فيها العظام، كما أنه ضروري لحدوث العمليات الحيوية في الجسم كالهضم والامتصاص، ويساعد أيضاً في تخلّص الجسم من الفضلات الزائدة عن حاجته على شكل عرق أو بول. فضلاً عن أن الماء يلعب دوراً هاماً في ثبوت درجة حرارة الجسم فيعمل بمثابة مكيّف للجسم لتثبيت درجة حرارته صيفاً وشتاءً. إذن باختصار: الماء يعني الحياة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠][1].

والتعبير الذي يظهر لإشباع هذه الحاجة: الظمأ وهذا تعبير القرآن، وحقيقته الجفاف. وهو جفاف في الغشاء المبطن للفم والحلق. وهذا ناشىء من عامل آخر أهم منه كما دلّت عليه التجارب، وهو نقص كمية الماء في أنسجة الجسم كله، وهو نقص يبدو أثره في جفاف الفم والحلق[2].

فإذا حدث هذا الجفاف اندفع صاحبه لإشباع حاجته للماء ليروي ظمأه. وقد امتنَّ الله على عباده بإنزال الماء من السماء الذي يوفّر لهم إشباع

---

(١) انظر: علم النفس المعاصر في ضوء الإسلام؛ د. محمد محمود محمد ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٢) أصول علم النفس؛ د. أحمد عزت راجح ص ٩١.

هذه الحاجة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النحل: ١٠].

ولأهميته فإنه ينصُّ على الشرب بعطفه على الأكل إيذاناً بأهميته واستقلاله كحاجة ضرورية ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

ومن الملاحظ أن سبل الحصول على الماء شاقة، وذلك إما بحفر الآبار أو الضرب في الأرض للوصول إلى مجاري الأنهار أو بوسائل صناعية حديثة كما يحدث في المصانع المقامة لتحلية مياه البحر، ولا شكَّ أن هذا مصداق لقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ . . . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ . . .﴾ [طه: ١١٧ ـ ١١٩].

حيث السبيل لري الظمأ على الأرض يتطلب الشقاء والنصب والتعب في حصوله، لا كما في الجنة قبل الإهباط، حيث تكفَّل الله لآدم عليه السلام بذلك.

ثالثاً: الحاجة إلى الملبس:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾، فكفل له في الجنة الملبس، وأشار إلى حاجته الماسة لذلك، وأن حصوله على ذلك في الحياة الدنيا قد يتطلب بعض المعاناة ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

وحاجة الإنسان إلى الملبس تتعلق بعدة أمور، منها:

- **الوقاية من تقلبات الجو من حرارة وبرودة**، يقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٨١]. والسربال: القميص من أي جنس كان[1]. هذا وإن كانت وسائل اتقاء الإنسان للحر والبرد كثيرة لكن ابتداءها من اتخاذ الملبس.

(١) مفردات الراغب ص ٢٢٩.

- **ستر العورات**: وهنا نستحضر أن أول عقوبة لآدم عليه السلام لما عصى الله تعالى في الأكل من الشجرة التي نهاه عنها كانت بانكشاف عورته: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]. وسميت العورة في الآية بـ «السوأة» لأنه كما قال البغوي: يسوء صاحبها انكشافها[1]. ولا شك أن مبادرة آدم وزوجه إلى ستر العورة من ورق الجنة دليل على شدة الحياء من انكشافها، وسيأتي الحديث عن هذه الصفة فيما بعد ـ إن شاء الله.

- **اتخاذ الزينة من اللباس**، حيث إن ذلك يشبع ميلاً نفسياً للتجمّل، يدلُّ على ذلك سياق قصة آدم في سورة الأعراف، حيث أتت بعدها جملة من التعقيبات يمكن استنباط العديد من الفوائد منها قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٦] فذكر نوعين من اللباس:

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الأول: ﴿لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ وهو ما يستر العورة فيكون المقصود اللباس الداخلي، وفيه قال كثير من العلماء: هذه الآية دليل على وجوب ستر العورة لأن الله تعالى قال: ﴿يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾[2].

الثاني: قوله ﴿وَرِيشًا﴾[3]، ويطلق على ما يستر الجسم كلّه ويتجمل به، وهو ظاهر الثياب كما يطلق الرياش على العيش الرغد والنعمة،

---

(١) تفسير البغوي (١/١٥٤).

(٢) تفسير القرطبي (٧/١٨٢).

(٣) ذكر الراغب في المفردات (٢٠٧) أي أصل الريش: ريش الطائر ولكن الريش للطائر كالثياب للإنسان استعير للثياب، يقال: أعطاه إبلاً بريشها أي ما عليها من الثياب والآلات. وقال ابن منظور: الريش: كسوة الطائر [لسان العرب (٦/٣٠٨)] مادة (ريش).

قال البغوي في معناه: «وقيل: الجمال أي ما تتجملون به من الثياب، وقيل: هو اللباس»[1].

وفي سياق الآيات نفسها يأتي قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ . .﴾ [الأعراف: ٣١ ـ ٣٣]، فالنص على الزينة في سياق اللباس الوارد في قصة آدم يدلُّ على كون النفس بفطرتها تتوق إلى اتخاذ الزينة من اللباس، ولذا أكّد الشارع على ذلك عند أداء العبادات ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾، بل وأقرَّ الاستمتاع بالزينة لعباده المؤمنين واستنكر على من يحرمها لكونها زينة ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ. . .﴾ وهذا هو أسلوب الشرع في التعامل مع الدوافع والميول الفطرية لدى الإنسان بإقرارها بمنهج وضوابط يكفل له التوازن في الحياة.

ولهذا نجد أن التحلي والتزيّن باللباس من الوعد الذي وعده الله المؤمنين في الجنة، فجعله من جملة أصناف النعيم مثل ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ. .﴾ [الكهف: ٣١]، وقوله: ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الدّخان: ٥٣]، وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [الحجّ: ٢٣]. وما ذاك إلا لعلمه سبحانه وتعالى بفطرة بني آدم في محبة التجمّل باللباس فجعله وعداً منتظراً في الجنة لمن أحسن عمله.

وقد تفنَّن الإنسان في عصوره المختلفة في صناعة اللباس من الخامات المختلفة، ولم يعد قاصراً على مسألة ستر العورة أو الوقاية من تقلّبات الجو. فتلوَّنت صنوف الأنسجة الفاخرة وما دونها، وتنوَّعت بعد ذلك عادات الشعوب أيضاً وأذواقهم في طريقة اللباس وخاماته حسب الأجواء والأذواق وقبل ذلك الأديان.

(١) تفسير البغوي (١/١٥٥).

وكل ذلك لإرضاء الأهداف الثلاثة الفطرية التي سبق ذكرها.

رابعاً: الحاجة إلى المأوى:

قال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال تعالى لآدم عليه السلام: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾ [طه: ١١٩]، وقد سبق أن فسرنا قوله: ﴿تَضۡحَىٰ﴾ التي في نهاية المطاف تدلُّ على المسكن، ولكن التعبير عن السكن بهذه العبارة يأتي على كافة أنواع المساكن، وسواء كانت كهوفاً في الجبال، أو خياماً من جلود الأنعام، أو بناء أياً كانت مادته لأن العامل المشترك في ذلك كله الوقاية من حرّ الشمس لأن معنى الضحو: الظهور للشمس.

وقد تكرَّر في القرآن في مواضع متعددة حاجة الإنسان للمأوى، وذكر على سبيل امتنان الله على عباده لتوفير هذه الحاجة التي لا يستغني عنها أحد، يقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾ [النحل: ٨٠، ٨١]. ويلاحظ مجيء هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: ٧٨]. فمجيء آية نعمة المسكن من تعداد النعم التي ألهم الله إليها الإنسان، وهي نعمة الفكر بصنع المنازل الواقية والمرفهة وما يشبهها من الثياب والأثاث بعد تلك الآية، من الألطاف التي أعدَّ لها عقل الإنسان وهيأ له وسائلها[1].

(١) التحرير والتنوير (١٤/٢٣٦).

والمتأمل في هذه الآيات يجد الإشارات التي تبيِّن سبب حاجة الإنسان للمأوى، فكما أن النص الأول فيه إيماء بأن سبب حاجة الإنسان للمأوى هو الوقاية من تقلّبات الجو وحر الشمس نجد هذا النص يبيِّن أسباباً أخرى، فهو أولاً مكان لحصول الأمان والسكينة والطمأنينة حيث يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ والسكن: من السكينة وهي الطمأنينة.

أما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ فهو يشير إلى هدف آخر لاتخاذ المأوى هو الحفاظ على النفس من الأخطار، حيث سمى الكهوف عندما تتخذ سكناً بالأكنان، والكن كما قال الراغب: ما يحفظ فيه الشيء[1].

وحتى في أحوال السفر والتنقل فإن الإنسان لا يستغني عن مأوى ومسكن يأوي إليه بحيث يكون متنقلاً معه ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ ومعنى «تستخفونها» أي تجدونها خفيفة، والظعن: السفر[2]، ففي الآية امتنان من الله سبحانه خاص بالبيوت القابلة للانتقال والارتحال. وقد يقابلها في عصرنا الحاضر الفنادق وما في حكمها لسدِّ حاجة سكن المسافرين.

أما جانب حب الإنسان للزينة الذي أشير له في اتخاذ الملبس فإنه لم يغفل هنا أيضاً، فإن في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ دليل على ذلك[3].

---

(١) المفردات ص ٤٤٢ (كن). وانظر أيضاً البناء النفسي في القرآن ص ١١٣ ـ ١١٤، والقرآن وعلم النفس ص ٢٧.

(٢) انظر: تفسير غريب القرآن ص ٢٤٧.

(٣) في ظلال القرآن (٤/٢١٨٧).

وقفات وتعليقات حول الحاجات الأولية للإنسان:

الوقفة الأولى:

إن ما يلفت الانتباه في آيات سورة طه عن قصة آدم قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]، وقد فسر الشقاء بالتعب[١]، قال الحسن في تفسير هذه الآية: «عنى به شقاء الدنيا، ولا تلقى ابن آدم إلا شقياً ناصباً»[٢]. وقال الفراء: «هو أن يأكل من كدِّ يده»[٣].

ومع أن الشقاء يصدق على شقاء الدنيا وشقاء الآخرة، إلا أن ما بعد هذه الآية: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ..﴾ [طه: ١١٨] يرجح كون المقصود بالشقاء هنا أنه شقاء الدنيا وهو تعبه ونصبه في توفير هذه الحاجات الأساسية التي لا يمكن بقاؤه إلا بتحصيلها. وبهذا يتبين أن توفير تلك الحاجات في الحياة الدنيا ليس سهلاً ميسوراً في نظرته العامة على مختلف الأجيال، فهو لا يحصل إلا بكدٍّ وتعب. حتى حياة الإنسان وصفت بشكل عام بهذا الوصف فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [البَلَد: ٤]. ولا شك أن هذا له ارتباط وثيق بعمارة الأرض وأن هذا مركوز في الفطرة من هذا القبيل.

الوقفة الثانية:

في مقام الحديث عن الحاجات الضرورية للإنسان والمتعلقة بحفظ النفس يقابل ذلك أمران لا بد من التنويه إليهما وهي اللذة والألم عند تحقيق الحاجة أو عدمه.

---

(١) مفردات الراغب ص ٢٧٥، وفيه أن أصل الشقاوة ضد السعادة، وهي على ضربين: شقاوة أخروية مثل: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، وقوله: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، ومنه: شقاوة دنيوية: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]، وكل شقاوة تعب وليس كل تعب شقاوة، فالتعب أعم من الشقاوة.

(٢) قول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم معلقاً (٢٤٣٨/٧).

(٣) معاني القرآن للفراء (١٩٣/٢).

ولما كان تعلق هذه الحاجات بنواح فسيولوجية بجسم الإنسان وعدم توفرها يودي بحياة الإنسان ويعرّضه للخطَر، فمن حكمته سبحانه وتعالى أن ركب في جسم الإنسان بعض الأمور التي تجعله يسعى لسدِّ ذلك، فمثلاً إحساس الجوع والعطش إحساس عنيف لا يمكن السكوت عليه ذلك ليكون هناك ضمان بألا يتهاون الفرد في المحافظة على ذاته، ولن تتيسر تلك المحافظة بغير الطعام والشراب. وبقدر ما يوجد من الألم أو القلق في عدم الاستجابة لتلك النوازع يوجد في الكفة الأخرى لذة في هذه الاستجابة، وبذلك وضعت كل الضمانات التي تكفل استجابة الفرد لأهداف الحياة دون أن يحسَّ في الوقت ذاته أنه مكلف بأداء فرض ثقيل[1].

قال ابن قدامة: «شهوات النفوس لم توضع إلا لفائدة، إذ لولا شهوة المطعم ما حصل تناول الغذاء، ولولا شهوة الجماع لانقطع النسل»[2]، ومثل ذلك ينطبق في اللباس والسكن.

ومما يشير إلى دوافع الجوع والعطش والتعب من الدوافع التي لا يستطيع أن يتحملها الإنسان عادة مدة طويلة لما تسببه له من ألم وما تلحقه من ضرر ما وعد الله تعالى به المؤمنين من ثواب لتحملهم الجوع والظمأ والتعب في سبيل الله، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٢٠][3].

الوقفة الثالثة:

ارتباط إشباع هذه الحاجات بإشباع دافع آخر مهم وهو: دافع الأمن.

---

(١) انظر: الإنسان بين المادية والإسلام ص ٧١.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ١٧٠.

(٣) انظر: القرآن وعلم النفس ص ٢٧، ٢٨.

وهو مطلب ضروري يسعى إليه الإنسان. ومن أهم أسباب توفره هو القدرة على تحصيل تلك الحاجات الجسمية لأنه عندما يفقدها الإنسان أو يصبح مهدداً بفقدها فإنه يشعر بالخوف، والخوف عند الإنسان مظهر لعدم إشباع دافع الأمن كما أن الخوف مصادره عديدة: كالخوف من عدو أو الخوف من شيء يتوقع حدوثه في المستقبل(١). ومما يلاحظ في بعض آيات القرآن إشارتها إلى الأهمية الخاصة لكل من دافع الجوع وانفعال الخوف في حياة الإنسان، فكل من الجوع والخوف يلعب دوراً هاماً في حياة الإنسان. فالإنسان عادة يجد كثيراً من العناء في سبيل الحصول على لقمة العيش لنفسه وزوجه وأولاده.

كما أن الخوف كثيراً ما يكون سبباً في شقاء الإنسان، ولذلك فقد ذكرت بعض آيات القرآن كلاً من الجوع والخوف كعاملين لهما أثرهما الخطير في حياة الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥](٢).

ولكون الخوف بشتى صوره له أثر سالب على سلوك الإنسان فإن تلازمه مع الجوع ونقص الغذاء يضاعف هذا الأثر، لذلك نجد رب العزة سبحانه وتعالى يعاقب العاصين به، كما نصت عليه الآية السابقة وكذلك قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢](٣).

يقول أبو بكر الجزائري في تفسير هذه الآية الكريمة: «أن من هدايتها هو أن الإطعام من الجوع والتأمين من الخوف عليهما مدار كامل

(١) البناء النفسي في الإنسان، دراسة من فيض القرآن ص ١١٤.
(٢) انظر: القرآن وعلم النفس ص ٢٨، ٢٩.
(٣) انظر: البناء النفسي في الإنسان ص ١١٤.

أجهزة الدولة، فأرقى الدول اليوم لم تستطع أن تحقق لشعوبها هاتين النعمتين، وهما نعمة العيش الرغد والأمن التام»[1].

ولعظم هذه النعمة فقد ذكرها الله على سبيل الامتنان على قريش حاثاً لهم على إخلاص العبادة لله شكراً لهذه النعمة ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قُرَيش: ٣، ٤].

الوقفة الرابعة:

لما كانت تلك الحاجات هي الأساسية الضرورية لبقاء الإنسان فإن كثيراً ما يقال أن فلسفة الإنسان نحو الحياة كثيراً ما تتغير بتأثير عدم اكتفاء حاجاته الفيزيولوجية فإذا لم تكن هذه الحاجات مكتفية ومشبعة فإنها تجعل الإمكانيات العضوية الإنسانية جميعها في خدمتها إلى أن تشبع. أما إذا كانت مكتفية بشكل شديد فإنها كثيراً ما تظهر لديه عديمة الأهمية. والدليل على هذا أننا نجد الذي لم يذق طعم الجوع لا يعير كثيراً من الاهتمام في حديثه عن الجماعة علاقة الأفراد فيما بينهم وخاصة المساكين الذين هم موضوع الحرمان ولا يعنيه ما يصاب به الفقراء من أفراد الجماعة، وحين ترتوي هذه الحاجات فإن المجال يصبح واسعاً أمام ظهور حاجات جديدة[2].

ولعل أحد الحكم من مشروعية الصوم هو الإحساس ببعض ما يحسُّه الفقراء فيكون دافعاً للنفس على البذل لهم.

ولما كان الإنسان مكوناً من قبضة طين ونفخة روح خيف عليه أن تنساق نفسه إلى إرضاء جانب الطين وهو الجسد على حساب جانب الروح، فحذر من الفقر الذي يجعل الإنسان مظنة أسره في جانب الجسد إلى حين توفير النقص، فكان تعوذ الرسول ﷺ من الفقر حيث قال: «**اللهمَّ إني أعوذ**

(١) تفسير الجزائري (٦١٩/٥).

(٢) بحوث في علم النفس العام، د. فائز محمد علي الحاج ص ١٤٣.

بك من فتنة النار وعذاب النار وفتنة القبر وعذاب القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر»[1]. وكانت كذلك تعاليم الإسلام التي حثَّت على سدِّ نقص الفقراء لئلا يقعوا في ذلك.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) الحديث أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب التعوذ من فتنة الفقر [فتح الباري (١١/١٨١)].

الفصل الثاني:

صفات تتعلق بالحياة النفسية

الدوافع النفسية هي دوافع لا تتصل بالجانب الفسيولوجي أو البيولوجي مباشرة، وهي دوافع خاصة بالإنسان كما أن البعد الفطري في وجودها واضح، إلا أن نموَّها سلباً أو إيجاباً يعزز بالتنشئة الاجتماعية للإنسان شأنها في ذلك شأن تعلّم الإنسان سبل إشباع هذه الدوافع وتوجيهها[1].

ونذكر هنا بعض هذه الدوافع مما أمكن استنباطه من قصة آدم.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

أولاً: حب الخلود:

من الدوافع التي يشترك فيها بنو آدم كراهية الموت وحب الحياة والخلود. وقد بدا ذلك واضحاً في المدخل الذي استطاع به إبليس إغواء أبينا آدم عليه السلام للأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠].

وقال أيضاً: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠].

وورود الشيطان لآدم وإسقاطه في الغواية من هذا الباب دليل على قوة

(١) انظر: البناء النفسي في الإنسان ص ١٢٣.

هذا الدافع في النفس الإنسانية وأصالته في تركيبها النفسي، وإلا فإن خبرات آدم آنذاك جديدة، ولم يعايش بعد من العوامل ما ينشىء ذلك في نفسه بالاكتساب، فدلَّ ذلك على أنه مركب في تلك النفس، وأنه على قدر كبير من القوة بحيث لجأ إليه إبليس في الغواية. ومعلوم أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق، ورد في الحديث: **«إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»**[1]، بحيث يعلم طبيعة النفس، ومواطن ضعفها، وأي المواطن أشد ضعفاً، قال ابن القيم في آية سورة الأعراف: «ومن ههنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها. وهذا باب كيده الأعظم الذي يدخل فيه على ابن آدم، فإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطه، ويسألها عما تحبه وتؤثره. فإذا عرفه استعان بها على العبد ودخل عليه من هذا الباب»[2].

ولو ألقينا الضوء على الأسلوب الذي عبر فيه عن حبِّ الخلود في الآيتين لتبيَّن لنا مدى تمكّن هذا الدافع في النفس الإنسانية. ففي قوله: ﴿شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] البلى كما قال الراغب: «من بَلِيَ الثوب بلىً وبلاءً أي خَلِق»[3].

فاستعماله هنا بمعنى الانتهاء، وبالتالي فالعبارة الثانية تأكيد لبعض معاني العبارة الأولى في قوة الدلالة على حب الخلود والبقاء الدائم، قال ابن عاشور: «أفصح عن استقرار محبة الحياة في جبلة البشر»[4].

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]

---

(١) الحديث أخرجه البخاري، كتاب الاعتكاف، باب: هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد [فتح الباري (٢٧٨/٤)].

(٢) إغاثة اللهفان (١١٣/١).

(٣) مفردات الراغب ص ٦١.

(٤) التحرير والتنوير (٣٢٦/١٦).

فإن في قوله ﴿مَلَكَيْنِ﴾ ـ بفتح اللام كما هي قراءة الجمهور ـ تعضيداً لرغبة الخلود، قال القرطبي: «وقيل: طمع آدم في الخلود لأنه علم أن الملائكة لا يموتون إلى يوم القيامة»(١). وقال ابن الجوزي في أحد معاني الآية: «إلا أن تكونا طويلي العمر مع الملائكة أو تكونا من الخالدين فلا تموتان أبداً»(٢).

وبذلك تحركت غريزة حب البقاء وحب التملك فيه ليقع في المعصية بعد إغوائه من الشيطان الرجيم، وذلك يدلُّ على تأثير وأهمية الدوافع في حياة الإنسان، فإذا كان هذا تأثيرها على آدم نفسه فكيف ببني آدم، الذين تؤثر في حياتهم جميع الدوافع والبواعث(٣).

وبالرغم من أن أكثر ما أيِّد الحديث عن هذا الدافع هو اعتباره نقطة ضعف في الإنسان وما يترتب على ذلك من السلبيات إلا أنه مما لا شك فيه أن هذا الدافع باعتباره فطرياً يستوي فيه كل بني آدم من الفوائد والإيجابيات ما يستدعي الانتباه والتفكر في الحكم الإلهية في سبب تأصيل هذا الدافع.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فإذا تأمَّلنا في هذا الدافع وهو حب الخلود والبقاء فإن ترجمته الفعلية هي كراهية الموت والفرار منه، وقد ذكرت في مواطن متعددة في القرآن. يقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢١٦] حيث أخبر أن حقيقة النفس تكره القتال لأن من نتائجه غالباً الموت الذي تكرهه النفوس. ويقول أيضاً: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: ١٩] أي تنفر منه(٤).

---

(١) تفسير القرطبي (١٧٨/٧).
(٢) زاد المسير (١٧٩/٣).
(٣) معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنة (١٢٣/٢).
(٤) المفردات ص ٣٤.

وبالتالي فإن وجود الحكمة في هذا الدافع تختلف عن وجودها في الضد وبمجموعها يكون تكامل وجود الإنسان والهدف من خلقه.

أما عن كراهة الموت فلنتأمل لو لم تكن هذه الصفة مركوزة في الفطرة فما الذي سيحدث؟

- هل سيدفع الإنسان عن نفسه مصادر الخطر التي تودي بحياته؟ أياً كانت تلك الأسباب!
- لو تهافت الناس على مصادر الخطر وأودت بحياتهم هل سيكون استمرار للنوع الإنساني؟

لذا نجد أحكام الشرع تحرِّم القتل وترتب عليه أردع العقوبات، بل تنهى عن مجرد تمني الموت كخاطر وإحساس.

قال ﷺ: **«لا يتمنَّى أحدكم الموت ولا يدعُو به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً»**[1]. وفي حديث آخر: **«لا يتمنينَّ أحدكم الموت إما محسناً فلعله يزداد وإما مسيئاً فلعله يستعتب»**[2]، فالحياة خير على كل حال، فإن قعدت به العزيمة فليقل: **«اللهمَّ أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي»**[3].

- لو لم يركز في فطرته حب الخلود هل هناك سعي نحو استغلال طاقات الأرض والاستفادة من كنوزها بحيث يتمكن الإنسان من تحقيق الخلافة في الأرض وما يكفل عمارتها، ولكي تتضح هذه الحقيقة لنا أن

---

(١) الحديث أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب كراهة تمني الموت لضر نزل به (٨/١٧).

(٢) الحديث أخرجه البخاري، كتاب التمني، باب ما يكره من التمني [فتح الباري (٢٢٠/١٣)].

(٣) الحديث أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء بالموت والحياة [فتح الباري (١٥٠/١١)].

نستحضر الفرق بين إنسان تغلَّب عليه شعور اليأس والقنوط، وآخر امتلأ أملاً في هذه الحياة لنرى مكاسب وجدَّ كلا الشخصين، فالفرق كبير والبون شاسع، فاليأس هو العقبة الكؤود والمعوق القاهر الذي يحطم في النفس بواعث العمل ويوهي في الجسد دواعي القوة، قال ابن مسعود: «الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب، والقنوط هو اليأس»(١).

وفي المقابل فإن الأمل قوة دافعة تشرح الصدر للعمل وتذكي دواعي الكفاح وتبعث النشاط في الروح والبدن فتدفع الكسول إلى الجد، والمجدَّ إلى المداومة على جدِّه والزيادة فيه، وتدفع المخفق إلى تكرار المحاولة حتى ينجح، وتحفز الناجح إلى مضاعفة الجهد ليزداد نجاحه(٢).

وفي هذا يقول ابن حجر: «الأمل مطبوع في جميع بني آدم كما في الحديث: «**لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين: حب الدنيا وطول الأمل**»(٣). وفي الأمل سرٌّ لطيف لأنه لولا الأمل ما تهنَّى أحد بعيش ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل من أعمال الدنيا، وإنما المذموم فيه الاسترسال فيه وعدم الاستعداد لأمر الآخرة، فمن سلم من ذلك لم يكلف بإزالته»(٤).

إذاً فالإنسان في ظلِّ الإسلام يوازن بين الحياتين الأولى والآخرة، فمع أن الهدف الأساسي هو الحياة الآخرة، إلا أن له من الحياة الدنيا منافعها وملذاتها المشروعة بالعمل الجاد المثمر ابتغاء مرضاة الله، وبذلك ينال الخلود الأبدي في الآخرة. قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧].

---

(١) الإيمان والحياة ص ١٦٥.

(٢) المصدر السابق ص ١٦٤ بتصرف.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله [فتح الباري (٢٣٩/١١)].

(٤) فتح الباري (٢٣٧/١١).

وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٠١][1].

وبهذا يتبين أن هذه الصفة ليست متمحضة للخيرية التامة، فهي كثيراً ما تصنف من مواطن الضعف في الإنسان، فلو اقتصر نظر الإنسان للحياة على هذا الدافع فقط فإنه سيورده الهلاك، لأن الأمل قد يطول عند ابن آدم حتى ينسيه الهدف الأساسي من خلقه، وهو عبادة الله، قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحِجر: ٣].

وقد ورد في الأثر: «إن أخوف ما أخاف عليكم الهوى وطول الأمل، أما الهوى فيضلُّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكلٍّ واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا..»[2].

وإذا عمل للدنيا ونسي الآخرة فقد هلك، والسبب في طول الأمل: حب الدنيا، والجهل. أما حب الدنيا فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت، فيمني نفسه أبداً بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء، وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدر قربه[3]. والسبب الثاني: هو الجهل، والمقصود استبعاده قرب الموت مع الشباب.

وباختصار، فإن هذا الدافع إذا قوي في الإنسان فإنه يطغى على عمله

---

(١) انظر: الإنسان وجوده وخلافته ص ٢٩٢.

(٢) الأثر الصحيح فيه أنه موقوف على علي بن أبي طالب، وقد أخرجه البيهقي في الشعب ١٠٦١٤(٣٦٩/٧). وأخرج البخاري قطعة منه معلقاً في كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله [فتح الباري (٢٣٦/١١)] وقد روي مرفوعاً من عدة طرق لكنها ضعيفة.

(٣) مختصر منهاج القاصدين ص ٤١٣، ٤١٤.

للآخرة ويضعف تعلّقه بالله، ويصبح تعلّقه بإشباع متطلبات الجسد دون الروح، ويصبح إلهه هواه ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣].

وقد ذكر سبحانه أن من وسائل تيقظ النفس لما يراد منها: حقيقة انتهاء الحياة مع حب النفس الشديد لها، يقول الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ١، ٢].

فهذه الآية تثير في النفس جانب اليقظة لما وراءها من قصد وابتلاء، فالإسلام جعل الهدف الأساسي من هذه الحياة هي عبادة الله، أما ما رافق ذلك من استمتاع بهذه الحياة واستغلال لمنافعها فلا بدَّ أن يتذكر الإنسان أن ذلك لا بد أن يتمَّ تحت ظلال هذا الهدف الأساسي لا أن يكون ذلك هو الهدف الأساسي. والحياة الحقيقية كما ذكرنا القرآن هي حياة الآخرة.

ولذلك لا بد من استغلال هذه الحياة المؤقتة للوصول إلى الحياة الدائمة الخالدة بالعمل على تنفيذ أوامره، وفي الحديث: «**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**»(١). والقرآن يذكّرنا بأن الخلود الحقيقي هو خلود الآخرة وهي الحياة الحقيقية، وأن مكوث آدم وبنيه في الأرض مكوث مؤقت إلى يوم القيامة، يقول الله تعالى مخاطباً لنبيّه ﷺ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى: ٤](٢).

ومتاع الدنيا أهون عند المؤمن من أن يأسى على فراقه بالموت، كيف والموت قنطرته إلى المتاع الباقي والنعيم السرمدي؟ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ

(١) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/٣٠٦) كتاب الرقاق، وقال عنه: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقرّه الذهبي في التلخيص.

(٢) انظر: مختصر منهاج القاصدين ص ٤١٥.

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧] فالموت ليس عدواً محضاً ولا فناءً صرفاً، إنه انتقال من حياة إلى حياة ومن طور إلى طور(١).

ولما كان هذا الدافع قوياً في النفس جعل الجهاد ذروة سنام الإسلام لما في ذلك من مخالفة لأعظم محبوبات النفس، وهو حب الخلود، وهو يؤدي إلى الموت الذي هو أشد مكروهاتها. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

بل إن الوعد الذي وعده الله للمجاهد في سبيله يركّز في ثناياه على انتفاء الموت الحقيقي الذي هو فناء محض وترغيب في حياة هي أعظم بكثير من تلك الحياة التي يتعلق بها الإنسان في الدار الدنيا. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١]. وكانت تلك الآيات في سياق مناقشة طويلة لموقف أهل النفاق من المشاركة في القتال والتركيز على مخافتهم من الموت.

وعليه، فالمؤمن لا يحب الحياة حب الحريص على متاعها الأدنى المتهافت على لذائذها حباً يخيفه من الموت ويلصقه بتراب الأرض، بل أحب المؤمن الحياة لأنه يقوم فيها بحق الله في الأرض، وأحب الموت لأنه يعجل به إلى لقاء ربه، وفي الحديث: «**من أحب لقاء الله أحبَّ الله لقاءه**»(٢).

---

(١) الإيمان والحياة ص ١٦١.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه [فتح الباري (٣٥٧/١١)]، ومسلم كتاب الذكر والدعاء، باب من أحب لقاء الله (٩/١٧).

وحينما خيِّر الرسول ﷺ بين لقاء ربِّه والبقاء في الدنيا قال: «**اللهم الرفيق الأعلى**»[1]، وحينما حضرت بلالاً الوفاة صرخت امرأته: واكرباه! فقال لها: بل واطرباه! غداً ألقى الأحبة.. محمداً وصحبه!![2] وغيرها كثير من قصص المجاهدين الذين فهموا حقيقة الموت.

ثانياً: حب التملك:

يميل معظم علماء النفس إلى اعتبار دافع التملك دافعاً نفسياً مكتسباً، أي أن إشباعه يتمُّ في إطار التنشئة الاجتماعية والبيئية، والدافع للتملك يعبِّر عن الاستحواذ وجلب الأشياء سواء كانت مادية أم غير مادية[3].

وممن رأى فطرية هذا الدافع من علماء النفس: «مكدوجل» صاحب نظرية الغرائز حيث ذكر من ضمن الغرائز غريزة التملك والادِّخار، حيث اعتبر أنها غريزة تثيرها أشياء ملائمة تميل بالفرد إلى حيازتها، وهي ظاهرة عند النمل والسنجاب، كما تبدو لدى الطفل حين يبدأ في جمع كل ما تقع عليه يده من أشياء ويحشو بها جيوبه حشواً[4].

وقد وجه لهذه النظرية الكثير من النقد، حيث تميل كثير من الدراسات الحديثة على قصر الجانب النظري والغريزي على الحاجات الفسيولوجية للجسم، أما النواحي النفسية والاجتماعية فيجعلونها مكتسبة ذات تعلّق بحاجات فطرية فسيولوجية. حيث هي وسائل لإرضائها في الحاضر

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه [فتح الباري (٣٥٧/١١)]، وكتاب الدعوات، باب دعاء النبي ﷺ اللهم الرفيق الأعلى (١٤٩/١١).

(٢) انظر: الإيمان والحياة ص ١٨١.

(٣) البناء النفسي في الإنسان ص ١٣٧.

(٤) أصول علم النفس؛ أحمد عزت راجح ص ١٠١.

أو المستقبل، فيرون مثلاً أن حب المال والادِّخار مكتسب ولكن يتعلق بالدوافع الفطرية من حيث هو وسيلة لإرضائها[1].

وهكذا نظرتهم للدوافع المكتسبة بشكل عام في كونها لا تنشأ من عدم، بل تستند على الدوافع الفطرية تحت تأثير العوامل البيئية، وجعلوا حب التملك من الدوافع الاجتماعية الحضارية بحيث تختلف من مجتمع لآخر[2].

ونحن لا نختلف معهم في كون جميع الدوافع الفطرية تتأثر بالحياة الاجتماعية والظروف المحيطة في كيفية التعبير عنها، ولا نختلف معهم أيضاً في ارتباط هذا الدافع بالدوافع الفطرية الفسيولوجية مثل دافع الجوع لأنه أحد وسائل تحقيقه، لكننا نختلف معهم في كون حب التملك مكتسباً وأن الجانب الفطري فيه فقط ارتباطه بدوافع فطرية أخرى؛ لأن اختلاف المجتمعات في التعبير عن هذا الدافع لا يعني كونه مكتسباً لأن الحياة الاجتماعية ذات تأثير مباشر عليه في كيفية الإشباع لا في أصل الاستعداد، وهذا ما يميِّز الإنسان عن الحيوان كما سبق أن أشرنا.

والذين قالوا بكون حب التملك مكتسباً لا فطرياً دعموا مقولتهم ببعض الملاحظات على طوائف من الجنس البشري لم تتحقق فيهم هذه الصفة. فمثلاً دافع التملك والادخار جعلوه مكتسباً لكون بعض البحوث الأنثروبولوجية بينت أن هذا الدافع لا وجود له في بعض القبائل الأسترالية التي تعيش في الصحراء لأن القوم يخرجون للصيد والتماس الماء، ومتى عادوا اقتسموا ما جمعوه بينهم، وليس لأحد أن يبقي ما جمعه لنفسه...[3].

---

(١) انظر: أصول علم النفس؛ أحمد عزت راجح ص ١٠٩.

(٢) الإسلام وقضايا علم النفس الحديث للسمالوطي ص ١٠٧، ١٠٨.

ويراجع في هذا الموضوع: مفاهيم علماء النفس (دراسة وتقويم رؤية إسلامية، هشام البدراني ص ١٣٦).

(٣) انظر: أصول علم النفس؛ أحمد عزت راجح ص ١٠١، والقرآن وعلم النفس؛ نجاتي ص ٣٨.

وهذا استدلال باهت ينقضه ما نجده في كتاب ربنا خالق الإنسان العالم بخفايا نفسه.

ومن أعظم الأدلة على كون التملك دافعاً فطرياً غير مكتسب لجوء إبليس إلى هذا الدافع باعتباره أحد أعظم دافعين يستحوذان على الإنسان في تصرفاته هما: حب الخلود وحب التملك حيث الرغبة في الحصول على الملك الذي لا يبلى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

وقد أشير لذلك أيضاً في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠].

وذلك في قراءة من قرأ بكسر اللام في قوله: ﴿مَلِكَيْنِ﴾[1] قال ابن القيم: «وكان ابن عباس يقرؤها بكسر اللام ويقول: لم يطمعا أن يكونا من الملائكة ولكن استشرفا أن يكونا ملكين، فأتاهما من جهة الملك، ويدل على هذه القراءة الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]»[2].

وإلى هذا مال سيد قطب في الظلال فقال: «ولكن القراءة الأولى - يقصد الكسر - وإن لم تكن هي المشهورة، أكثر اتفاقاً مع النص القرآني

---

(١) قراءة الجمهور بفتح اللام ﴿مَلَكَيْنِ﴾، وقرأ بكسر اللام ابن عباس ويحيى بن أبي كثير فيما أخرج عنهما الطبري بسنده (٣٤٨/١٢، ٣٤٩). قال الطبري: وكان ابن عباس ويحيى وجها تأويل الكلام إلى أن الشيطان قال لهما: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين من الملوك، وأنهما تأولا قول الله في موضع آخر: ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

(٢) إغاثة اللهفان (١١٢/١)، وانظر أيضاً كتاب مصائب الإنسان من مكائد الشيطان لابن مفلح المقدسي ص ٤٣ حيث قال: «ويمكن الجمع - يقصد بين القراءتين - بأن آدم رأى أن الملائكة لها ملك التدبير فإن الله سبحانه جعل للملائكة تصرفاً في العالم، وكذا رأى لها تصرفاً في أمور الجنة فدخل عليه من هذه الجهة».

الآخر ومع اتجاه الكيد الشيطاني وفق شهوات الإنسان الأصلية»[1]. وقال أيضاً في تأكيد فطرية هذا الدافع: «وذلك الإغواء يعتمد على نقط الضعف الفطرية في الإنسان...»[2].

وتبدو فطرية هذه الصفة أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ...﴾ [الإسراء: ٦٤] حيث جعل مجال حب المال وحب تملكه إحدى وسائل الشيطان في صد بني آدم عن الطريق المستقيم، وما ذاك إلا لكونها صفة فطرية يشترك فيها كل بني آدم.

إذاً إثبات فطرية هذه الصفة بدا واضحاً في قصة آدم، ونعتقد أنه دليل كافٍ لإثبات فطريتها حيث لم يكن هناك مجتمع يكتسب منه آدم هذه الصفة. غير أن بعضاً ممن كتب في مجال الدراسات النفسية في القرآن من رجح كون هذا الدافع مكتسباً حتى من خلال الآيات المذكورة في قصة آدم بحجة أن هذا الدافع لم يكن موجوداً فطرياً عند آدم وذريته من بعده، وأن الذي يمكن استنتاجه من القصة أن إبليس حاول أن يثير في نفس آدم دافعاً لم يكن موجوداً لديه بالفعل في ذلك الوقت، وبذلك يكون آدم قد تعلّم دافع التملك عن طريق إيحاء إبليس له وتأثيره فيه[3].

وهذا استنتاج فيه نظر، إذ أن إبليس لا يصنع الرغبة في آدم من العدم بل هو بحكم ما مكنه الله من الاطلاع على خفايا النفوس يعلم أشد هذه الرغبات قوة فيأتي النفس من خلالها. ولذا نجد مواطن الضلال في البشرية في الغالب، تأتي من حيث اختلاف الرغبات قوةً وضعفاً في النفس البشرية.

ومما يرجح كون هذه الصفة فطرية أن الله سبحانه وتعالى جعل أول صفات الإنسان أنه خليفة في الأرض ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

(١) الظلال (١٢٦٨/٣).
(٢) الظلال (١٢٦٨/٣).
(٣) انظر: القرآن وعلم النفس ص ٤٠.

[البقرة: ٣٠]، وأول صور الخلافة عمارة الأرض ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. وبالتالي نجد أن الله ركز في فطرة هذا المخلوق كل ما يكفل تحقيق هذا الهدف بحيث يسير إلى تحقيقه تلقائياً دون أن يحتاج في ذلك إلى تعليم وتكلف، ولا شك أن حب التملك من أسرع الوسائل لتحقيق الخلافة وعمارة الأرض. ذلك لأن التملك والادِّخار لا يكون إلا ثمرة جهد وعمل حثيث في مناكب الأرض لاستخراج خيراتها واستغلالها ليتحقق هذا التملك. ولو لم توجد هذه النزعة لأصبحت الخلافة وعمارة الأرض تكليفاً ثقيلاً يتوقف الإنسان في نهاية المطاف عن الاستمرار فيه وقد صرح بالربط بين المال والخلافة في القرآن، يقول الله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [الحديد: ٧].

هذا بالإضافة إلى النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة التي تدل على تأصل هذه الصفة حتى لا تدع مجالاً للشك أن هذه صفة عامة في جنس الإنسان على مر العصور، وأنها فطرية وإن اختلفت الثقافات والحضارات في كيفية التعبير عنها. ومن هذه النصوص قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ...﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]. وفي الحديث قال ﷺ: **«ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»**[(١)]، وقال أيضاً: **«لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً..»**[(٢)] وغيرها كثير من النصوص التي دلّت بمجموعها على فطرية هذه الصفة.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ٤٣ (٥٨٨/٤) وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند (٤٥٦/٣) وصححه الألباني. انظر: صحيح الجامع الصغير (١٤٣/٥).

(٢) الحديث أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال [فتح الباري (٢٥٣/١١)].

ومن أكثر النصوص دلالة قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٤].

وهذه الآية قد دلَّت على فطرية حب التملك من عدة وجوه:

١ ـ التعبير عن حب التملك وحب المال بأسلوب يوحي بقوة هذه النزعة في النفس عند قوله: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾، فنهم المال هو الذي ترسمه ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ﴾ ولو كان يريد مجرد الميل إليه لكان في ذكر المال أو الذهب والفضة كفاية، ولكن القناطير المقنطرة تلقي ظلاً خاصاً هو المقصود، ظل النهم الشديد لتكديس الذهب والفضة ذلك أن التكديس ذاته شهوة بغضّ النظر عما يستطيع المال توفيره لصاحبه من الشهوات الأخرى[1]، وهذا ما نلمسه في قوة التعبير عن هذه المحبة في النصوص السابقة أيضاً.

٢ ـ أن الله اختتم هاتين الآيتين اللتين تحدثتا عن شهوات النفس العامة والفطرية بقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عِمرَان: ١٥]، وهو ختام بليغ من حيث مناسبته لموضوع الآية، والمعنى: أنه بصير بحقيقة فطرتهم، وما ركب فيها من ميول ونوازع، بصير بما يصلح لهذه الفطرة من توجيهات وإيحاءات، بصير بتصريفها في الحياة وما بعد الحياة. ولا شك أن هذا شاهد على كون الصفة فطرية لا مكتسبة.

٣ ـ لما كانت كل صفة فطرية في الإنسان ركزت لأداء هدف أساسي من وجوده، فإن نزعة حب التملك وحب المال والادّخار لازمة في حفظ الحياة وامتدادها. ولذا نجد أن سياق الآية عند عرض ما زين للإنسان الاستكثار منه نجده يعرض أصنافاً من شأنها أن تساهم في بقائه إما

(١) في ظلال القرآن (١/٣٧٤) بتصرف.

مباشرة أو بواسطة، فالحرث يشعر بسد حاجته للطعام، والأنعام تشعر بسدٍّ بعض حاجته للملبس والمسكن، أما الذهب والفضة فهي وسيلة لتحقيق شتى الاحتياجات التي من أبرزها تحقيق الأمن النفسي. هذا مع كونها محببة في حدِّ ذاتها.

ومما يجدر بيانه أن هذا الميل الفطري للتملك والمال لو كان هو الوحيد المركوز في الفطرة لقضى على كل القيم والمثل العليا، ولساد المجتمع الجشع والطمع، ولنتج عنه الحقد والحسد بين طبقات المجتمع التي ستتسع بشكل كبير. ولكن الله سبحانه من حكمته أن خلق التوازن في هذا الإنسان حيث إن فطرة التوحيد والخضوع لله سبحانه وتعالى هو الضابط لكثير من الأمور التي جبل عليها الإنسان ومن شأنها أن تنحدر به.

ولذا نجد كثيراً من آيات القرآن حينما تدعو إلى عبادة الله والإخلاص والاجتهاد في ذلك تنبِّه على كل ما من شأنه أن يبعده عن الهدف الأساسي لخلقه، وتستعمل في ذلك الترغيب بجنس هذا المتاع في حياة الآخرة، ولكن أضعاف ذلك، مما يجعل النفس تسترخص متاع الدنيا عند متاع الآخرة. وبدا ذلك واضحاً في ذكر نعيم الآخرة بعد سرد لذائذ الحياة الدنيا: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

ولهاتين الآيتين نظائر في عرض هذا المعنى مثل قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦]، وقوله: ﴿... أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

ومع أن الله سبحانه وتعالى حذر الإنسان من متاع الحياة الدنيا ورغَّبه في

الحياة الآخرة إلا أنه لم يتحدث عن هذه الشهوة بشكل مستقذر، أو حرم عليه بتاتاً الاستمتاع بها بل نجده يعرضها بطريقة إخبارية تتضمن الإقرار بها ومعرفة طبيعتها ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ فهي شهوات محببة ليست مستقذرة ولا كريهة وليس في التعبير ما يدلُّ على ذلك، بل يدعوه إلى وضعها في مكانها اللائق الذي لا تتعداه بالأخذ منها من غير استغراق ولا إغراق، بحيث لا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى.

ولا يقف عند حد الإقرار بها بل نجده قد كفل للإنسان حقوقه في هذا الجانب فجعل المال من الضروريات الخمسة التي ينبغي المحافظة عليها وهي: الدين، النفس، العقل، المال... كذلك حرم السرقة وأوجب فيها الحد، وحرم الغصب.

وهنا يمتاز الإسلام ـ لكونه شريعة مصدرها من خالق الإنسان ـ بمراعاته للفطرة البشرية وقبولها بواقعها ومحاولة تهذيبها والارتفاع بها لا كبتها وقمعها كما تفعل التعاليم الكنسية.

فالمسلم يرى أن هذه الشهوات أمر واقع وأن الشريعة تعترف بوجوده، فلا يجد في نفسه الاشمئزاز ولا النفور من هذه الشهوات. فإذا أحسَّ الإنسان بالرغبة في امتلاك المال فليس ذلك من نوازع الشيطان، ولا هو مما يجلب غضب الله عليه فتنتفي مبررات الكبت والاضطرابات، لكنه في المقابل يضع قيوداً لامتلاك المال فلا يبيح له أن يطيع شهوة القناطير المقنطرة بلا حساب، بل يفرض عليه سلوكاً يجعل سلوكه في الاكتساب والإنفاق أيضاً حلالاً، بل يكفل مصلحة الفرد والجماعة.

وهناك فرق أساسي بين تقييد شهوة المال في الميدان التنفيذي وبين منع الإحساس بتلك الشهوة في داخل النفس، وهذا الأمر ينطبق على كثير من رغائب النفس البشرية[1].

(١) انظر: الإنسان بين المادية والإسلام ص ٧٣ ـ ٧٦، الظلال (٣/٣٧٤).

والقيود التي أشرنا إليها في حب المال وتملكه هي قيود ترجع منفعتها للإنسان سواء كان له وحده من حيث حياته النفسية والدينية أو ترجع منفعتها له حين يجتمع بغيره، وبعبارة أخرى لصالح المجتمع.

وهكذا سائر القيود التي يفرضها الإسلام على شهوات النفس فكل قيد يفرض هو قيد ذو شعبتين تعملان معاً وفي آن واحد: إحداهما لمصلحة الفرد، والأخرى لمصلحة المجتمع. وكل حرية تباح هي كذلك حرية ذات هدفين في آن واحد: أحدهما لصالح الفرد والآخر لصالح المجتمع(١).

وحتى تتقبل النفس تلك القيود المنظمة للتصرف في الأموال، يقرر الله سبحانه وتعالى أن المال والملك لله سبحانه وتعالى وأن الإنسان ما هو إلا مستخلف في هذا المال، فالملكية الحقيقية لله سبحانه وتعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ [الحديد: ٧]، وقال: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾ [النور: ٣٣]، فالمال وإن أجرى كسبه على أيدي الناس، فإنهم يملكون التصرف فيه، لكنه في الحقيقة مال الله ينصب في مصالح الأمة لذا لا بد من التقيد بأمر الله في كيفية اكتسابه وإنفاقه.

ولما كانت فطرة النفس في حب تملك المال قوية حتى صارت قسيمة لحبه للخلود والحياة وكراهيته للموت، جاءت تلك القيود التهذيبية للنفس لتلافي خطورتين:

الأولى: مخافة طغيان المال على نفسية صاحبه، وبالتالي الحفاظ على خلوص التعلق القلبي بالله سبحانه وتعالى، وتلك هي العبودية، أما المال فينبغي أن لا يعدو كونه وسيلة لسير الحياة فإذا تعدى ذلك استعبد القلب. وهذه نتيجة طبيعية إن تركت النفس بدون تهذيب ولذا أتت النصوص تحذر من ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) الإنسان بين المادية والإسلام ص ٨٣.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ...﴾ [المنافقون: ٩]، ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥]، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾﴾ [الهُمَزة: ١-٣].

وفي الحديث: «**تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعطَ لم يرضَ**»(١)، ولتخليص النفس من شدة التعلق بالمال فرضت الأحكام التي تخفف به وطأة حب المال، وذلك بتقديم أمر الله على حب ادِّخار المال وكنزه، وذلك بمراتب: أدنى الكمال بأداء الزكاة المفروضة الكمال: بكثرة الصدقات مع الزكاة وجعل الجهاد بالمال قسيماً للجهاد بالنفس لما أن في الصدقات تخلصاً من حب عظيم في الفطرة يعادل حبَّه للخلود وللحياة فيحتاج إلى جهاد لتهذيبه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥].

وليست الصدقات ولا الجهاد بالمال أمراً مستحيل الوقوع ولا بمصادم لحب فطري لأنه كما غرز في الفطرة حب المال فكذلك هناك ميل فطري أيضاً في النهوض والارتفاع بالنفس نحو خالقها من خلال فطرة الدين، وبذلك يكون قد تهيأ لهذه النفس ما يعاونها على تحقيق هذا الهدف النبيل، وبالتالي يتحقق للإنسان شطرا حياته، ويوازن بينهما بل ويخرج بينهما حتى ليصبحان أمراً واحداً في النهاية يتحقق به هذا الهدف وذاك.

والوسيلة التي يتبعها الإسلام في تحقيق ذلك كله هي إقامة الأهداف العليا أمام البشرية وتذكير الناس بها كلما انحرفوا أو هبطت بهم شهوات الجسد عن التوجه إليها بأفكارهم وأرواحهم جميعاً(٢).

---

(١) الحديث أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال [فتح الباري (٢٥٣/١١)].

(٢) الإنسان بين المادية والإسلام ص ٨٧ ـ ٨٩ باختصار.

وإذا كان هناك ثمة تفريط في مراعاة التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة من هذه الجهة، فإنه لا بد سيحصل نتائج لا تحمد عقباها على الفرد وعلى المجتمع أيضاً، وأكبر دليل على ذلك: النظام الشيوعي الاشتراكي الذي بالغ في مصلحة الجماعة متجاهلاً تلك المحبة الفطرية للملك والمال، والنظام الرأسمالي الذي بالغ أيضاً في إطلاق العنان لهذه الرغبة في المال، بحيث تجمعه وتنفقه كيفما شاءت بدون ضابط أو وازع يهذبها. ولسنا هنا في مجال دراسة هذين الفكرين ومبادئهما والنتائج المترتبة على كلٍّ منهما، ولكن الذي يعنينا هو أن سبب فشل كل منهما قيامها على غير هدى من خصائص النفس الإنسانية وما تحتاجه لتعيش في هذه الأرض وتعمرها على أحسن وجه كما يريد منها خالقها(١).

الخطورة الثانية: الفقر وآثاره المدمرة فردياً وجماعياً، فهو يمحو منابع العزة والقوة في نفس المحتاج ويجعله يرضى بالهوان والذل، بل ويدفعه إلى ارتكاب الرذائل والجرائم(٢). لهذا كان الرسول ﷺ يستعيذ من الفقر فيقول: **«اللهمّ إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار وفتنة القبر وعذاب القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر»**(٣).

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(١) يراجع تفاصيل هذين النظامين: النظام الاقتصادي في الإسلام: مبادئه وأهدافه، د.أحمد العسال، د.فتحي عبدالكريم ص ٢٧ ـ ٣٢.

(٢) انظر: النظام الاقتصادي في الإسلام ص ٤٧.

(٣) الحديث أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب التعوذ من فتنة الفقر [فتح الباري (١٨١/١١)].

الفصل الثالث:

صفات نفسية اجتماعية
الأسرة والصفات الفطرية المتعلقة بها

أولاً: الحياة الزوجية فطرة:

إن من سنن الله الماضية في كل خلقه: الزوجية، وقد بدا ذلك واضحاً في كثير من النصوص القرآنية، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٦]، وقال: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣]، فهي سنة جارية، وهي قاعدة في كل خلق الله أصيلة. ولسنا بصدد تقصّي تطبيق هذه السنة في مخلوقات الله الواسعة، فهذا ليس مجال البحث، لكن الذي يهمنا أن الإنسان قمة الحياة وعلى هرم بنية الكون، وبالتالي فهو يسير على نفس السنة. وتتمثل فيه ظاهرة الأزواج بكل عمقها وكل دلالتها[1].

ولذا فقد أعقب خلق آدم خلق زوجه وهم بالملأ الأعلى، قبل الإهباط إلى الأرض، بل قبل دخوله الجنة وحصول المعصية منه، يتبين ذلك من الآيات التي حكت قصة خلق آدم، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ

(١) انظر تفصيل ظاهرة الأزواج في الكون في: دراسات في النفس الإنسانية ص ١٩٥، ١٩٦، في ظلال القرآن (٣/١٢٦٨).

وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه: ١١٧]، وقال: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩].

ولا شك أن بدء خلق الحياة الزوجية في هذا الوقت المبكر كان للدلالة الفطرية التي تشعر بالحاجة الماسة للحياة الزوجية لكيان الإنسان الذي ابتدأ في أبينا آدم عليه السلام، وأن اتجاه الإنسان إلى الزواج، وتكوين الأسرة هو حاجة فطرية يتحقق منها الكثير من الفوائد لكلا الزوجين كل حسب طبيعته، وبالتالي حسب وظيفته التي أنيطت به في هذا الهيكل الأسري.

وكما لاحظنا في فصول البحث السابقة فإن ما من أمر يركز في الفطرة إلا ويكون له دور في مسيرة دفة الحياة سواء كان دوراً رئيسياً أو فرعياً، وهذا الأمر ينطبق أيضاً على حاجة الإنسان لاتخاذ الزوج، والانتماء للأسرة.

ومعلوم أن دافع اتخاذ الزوج ينبني أساساً على الدافع الجنسي الذي به يكون التناسل، وبالتالي الحفاظ على بقاء النوع الإنساني، ولكن هذا الدافع وما يترتب عليه من فائدة بقاء النوع ليس هو الوحيد في الحياة الزوجية وفوائدها، بل هناك أهداف وفوائد أخرى تترتب على الحياة الزوجية التي بها يحصل التناسل حتى صارت تلك الفوائد مطلباً فطرياً للإنسان يسعى لتحقيقه، ومن ذلك:

(١) الأنس بالجماعة:

يحدث التناسل بين البشر فتتكون الأسرة ومن الأسر تتكون المجتمعات والشعوب، فتعمر الأرض وتتعارف الشعوب وتزدهر الحضارة وتتقدم العلوم والصناعات[1]. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ

(١) انظر: القرآن وعلم النفس ص ٣٤.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

هذه الحقيقة التي أوضحها الله في صدر صورة النساء تمثل قاعدة أصلية في التصور الإسلامي تقوم عليها الحياة الجماعية حيث التشريعات العملية الواردة في هذه السورة لتحقيق البناء التكافلي للجماعة مستندة إلى تلك الركيزة(١).

وهي توحي بأن سبب الرحمة والتعاون الذي هو ركيزة التكافل الاجتماعي، هو رجوعهم إلى أصل واحد، ونفس واحدة، وبالتالي فإن كل إنسان محتاج لأخيه الإنسان مهما اختلف جنسه أو لونه، يأنس به، ويتعاون معه، لتحقيق الأهداف، ويلجأ إليه في الشدائد، وبالتالي لا يمكنه العيش بمفرده فهو اجتماعي بطبعه، ولعل آية الحجرات توضح جانباً من هذا المعنى حيث ذكرت تفرع البشرية من أصل واحد ﴿ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ أسرة واحدة تكونت منها أسر وتكونت من الأسر شعوب وقبائل، هذا التفريع العجيب له هدف ينتج منه إشباع حاجة نفسية فطرية في النفس هي التعارف فيما بينها فيحقق الأنس بذلك والتعاون بين أفراد الجنس الواحد فيكون سبباً فيما بعد لاستغلال طاقات الأرض وعمارتها.

هذه الحاجة صنفت في كثير من الدراسات النفسية على أنها مكتسبة(٢) وهذا صحيح من حيث طريقة التعبير، ولكن أصل الدافع والحاجة فطري في النفس الإنسانية تصبو إليه وتسعى لتحقيقه ولكن كل مجتمع حسب بيئته.

ولا شك أن بدء تحقيق هذا الدافع في النفس الإنسانية هو انتماؤه

---

(١) الظلال (٥٥٩/١).

(٢) انظر في ذلك: أصول علم النفس، د.أحمد عزت راجح ص ١٠٩ ـ ١١٦، علم النفس المعاصر في ضوء الإسلام ص ١٤٧ ـ ١٤٩. وممن صنفها من الدوافع الفطرية: مكدوجل في نظرية الغرائز حيث عد من الغرائز: الغريزة الاجتماعية، انظر: أسس الصحة النفسية ص ٧١.

للأسرة المكونة من الأب والأم ولذلك كان التركيز على ذلك في آيتي سورة النساء والحجرات ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا...﴾ [النساء: ١]، ﴿مِن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحُجرَات: ١٣]، فتنبت هذه الحاجة في أحضان الأسرة بعلاقة الطفل بأمه وباقي أفراد أسرته ثم يميل بالتدريج إلى تعميم هذه العلاقة بانتمائه إلى جماعة أوسع، إما جماعة الأصدقاء، أو جماعة مهنية معينة أو جماعة تجمعها الفكر الواحد.

ولا شك أن هذا الاحتكاك بين أفراد المجموعة الواحدة يؤدي إلى الشعور بأنه جزء متكامل من الجماعة يتعاون أفرادها في تحقيق أهداف الجماعة.

وهذا الأمر جدير باستغلاله في تربية النشء سواء من قبل الوالدين أو المربّين بشكل عام، لمحاولة توجيه الناشئة لتحقيق هذا المطلب الفطري فيما يعود بالنفع عليه أولاً، ثم على مجتمعه. ولو ترك بدون توجيه فقد يتمّ إشباع هذا المطلب في الانتماء إلى جماعات إما أن تكون بدون هدف منتج أو تكون جماعات ذات نتائج سلبية كالجماعات التي تمتهن الجريمة، وأخطر منها الجماعات الفكرية التي تتبنى أفكاراً مخالفة للدين الإسلامي.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(٢) حاجة الزوجين إلى السكن العاطفي والمودة:

فالعلاقة الزوجية ليس مهمتها فقط إشباع حاجات الجسد، بل تشبع حاجات نفسية أخرى لا تتحقق إلا بهذه العلاقة، وهي علاقة المحبة والسكن والمودة والرحمة، وقد نص القرآن على ذلك على سبيل الامتنان على الإنسان بتحقق هذا الأمر من العلاقة الزوجية. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرُّوم: ٢١].

ويلاحظ في سياق الآية تبرير لهذا السكن حيث قال: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، وقوله أيضاً: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] أي من النفس الواحدة، وهو آدم عليه السلام، ولا شك أن خلق المرأة من نفس الرجل يبرّر السبب في الميل والنزوع الفطري من المرأة للرجل، وكذلك عند الرجل الميل للمرأة

والأنس بها، فكل من الجنسين نفس واحدة في طبيعة تكوينها وإن اختلفت وظيفتهما بين الذكر والأنثى على نحو يجعل هذا الاختلاف موافقاً للآخر، ملبياً لحاجته الفطرية، نفسية كانت أو عقلية أو جسدية بحيث يجد عنده الراحة؛ لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما للآخر، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد، وهذه نظرة الإسلام لحقيقة الإنسان بجنسيه: الذكر والأنثى، فالاختلاف بينهما ليحصل السكن، وفي هذا رد على الديانات المحرفة التي تنظر للمرأة على أنها نجس ولعنة[1].

والأنس والمودة والسكن الذي يلقاه كل من الزوجين من الآخر في الحياة الزوجية فوق أنه يلبي حاجة فطرية داعية إلى اتخاذ الزوج، له أهمية أخرى تتعلق بتحقيق محضن سوي لتربية الأطفال الذين هم النتيجة لهذه العلاقة، قرن موضوع السكن في الحياة الزوجية بالإنجاب، تنبيهاً عليه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩].

(٣) حاجة المرأة لقوامة الرجل:

إن الزوجية التي اقتضتها فطرة الله وسنته عند الإنسان يتولى زمام الأمر فيها الرجل، بحيث تكون المرأة تابعة له، ويتولى بدوره تأمين متطلبات الزوجية، وفروعها وهم الأبناء. ويمكن استشفاف ذلك عند التأمل في كيفية الخطاب في الآيات المتعلقة بآدم في مواضعها المختلفة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥]، وقوله: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنَ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩].

(١) انظر: الظلال (١٤١١/٣، ٢٧٦٤/٥).

فنجد ذكر آدم بالأصالة ويتبعه زوجه، فكأن التكليف للرجل بالأصالة من حيث الأمر بالسكن حتى أن التذكير بنعيم الجنة الذي كانت فيه الإشارة إلى توفر الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان في الحياة الدنيا ـ وهي الشبع والري والكسوة والسكن ـ كان الخطاب فيها لآدم بالإفراد: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ . . ﴾ [طه: ١١٧-١٢١].

ولذا نجد القرطبي يستنبط من هذه الآيات باعتبار صيغ الخطابات فيها أن نفقة المرأة واجبة على الرجل، يقول القرطبي: «فتشقى: يعني أنت وزوجك لأنهما في استواء العلة واحد. . وأيضاً لأنه لما كان الكادّ عليها والكاسب لها كان بالشقاء أخص. . وإنما خصَّه بذكر الشقاء ولم يقل فتشقيان، ليعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج. فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج فلما كانت نفقة حواء على آدم كذلك نفقة بناتها على بني آدم بحق الزوجية وأعلمنا في هذه الآية أن النفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة: الطعام والشراب والكسوة والمسكن. فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها، فإن تفضَّل بعد ذلك فهو مأجور، فأما هذه الأربعة فلا بد لها منها لأن بها إقامة المهجة»[1].

وفي هذا يقول صاحب تفسير المنار أيضاً: «والآية ترشد إلى أن المرأة تابعة للرجل في السكن والمعيشة باقتضاء الفطرة وهو الحق الواقع الذي يعدُّ ما خالفه شذوذاً»[2].

أما ابن عاشور فنجده يستنبط من سياق الخطابات أمراً أدق وأعجب

(١) تفسير القرطبي (١١/٢٥٣).

(٢) تفسير المنار محمد رشيد رضا (٧/٣٤٦).

في تبعية المرأة للرجل، ألا وهو ما يتعلق بنمط التفكير حيث تميل المرأة في الغالب إلى الاقتداء بزوجها فطرة فنجده يقول: «اقتصار الشيطان التسويل على آدم وهو يريد أن يأكل آدم وحواء، لعلمه بأن اقتداء المرأة بزوجها مركوز في الجبلة، وإثبات العصيان لآدم دون زوجه، يدلُّ على أن آدم كان قدوة لزوجه، فلما أكل من الشجرة، تبعته زوجه، وفي هذا المعنى قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦][1].

وقد بدا هذا بعد ذلك واضحاً صريحاً في الآيات الواردة في تنظيم الحياة الزوجية الأسرية بشكل عام. قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء: ٣٤].

ومن الواقع المشاهد أن الأسرة التي يقوم فيها الرجل بحقوق القوامة كاملة كما هو مقرر في آية النساء، تشعر المرأة فيها - بل سائر أفراد الأسرة - بالراحة والطمأنينة لأنها كُفيت مهاماً لم تهيأ لها من أصل الخلقة، أما إذا انقلبت الموازين وتولَّت المرأة بعض مهام القوامة - باختيار كان أو اضطرار - فإنها تكون قد حمَّلت نفسها ما لا يتَّسق مع طبيعتها، فقد تعجز عن مواصلة المشوار أو على الأقل تفقد الراحة والطمأنينة الأسرية.

ومن خلال ما سبق تبيَّن أن الحياة الزوجية واتخاذ الأسرة مطلب فطري تتوق النفس لتحقيقه، وقد رأينا من خلال النصوص القرآنية ما ترتب على الحياة الزوجية من فوائد، وعليه تتبين بعض وجوه الحكمة من حثِّ الإسلام الشباب على الزواج لكثرة ما يحقق من مطالب فطرية ينتج عنها كثير من الفوائد.

أما في عصرنا الحاضر، فقد انتكس كثير من الفطر خصوصاً عند الغرب حيث يلجأ كل من الرجل والمرأة لإشباع حاجاته الجسدية بغير زواج أي بالزنا. والزنا بالإضافة إلى المحظورات العظيمة المترتبة على الفعل نفسه

(١) انظر: التحرير والتنوير (٣٢٧/١٦).

فإنه يؤدي إلى تعطيل الفوائد العظيمة التي سبق ذكرها. ولهذا ظهرت عندهم الأمراض الاجتماعية التي أقلقت المربّين، فتربية الأطفال في الملاجىء والدور المخصصة بعيداً عن والديهم، والتفكّك الاجتماعي، والأمراض النفسية وامتهان الجريمة، كله من إفرازات تعطيل المطالب الفطرية المشار لها.

ثانياً: حب الولد:

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسرَاء: ٦٤].

أورد المفسرون عدة أقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ تضمنت تحديداً للمقصود من المشاركة في الأولاد[1]. ولا شك أن ما ذكروه يعد من اختلاف النوع وهو كالمثال لمعنى الآية كما هو المقرر في أصول التفسير، وعليه فالمعنى أعم مما ذكر. فهي تشمل كل وسيلة يسلكها الشيطان لمشاركة الإنسان في ولده، والمشاركة: مخالطة الشريكين فهي مفاعلة من الشركة[2]. والولد: يعم جنس الأبناء ذكوراً كانوا أم إناثاً[3] والذي يعنينا في هذا المقام هو: لمَ اختار الشيطان الأولاد لمشاركة الإنسان فيه؟

---

(١) من الأقوال الواردة في تفسير الشركة في الأولاد: أنها الموؤودة كما قال ابن عباس، وأنها أولاد الزنا كما قال مجاهد والضحاك، وقال الحسن وقتادة: هو أنهم هوّدوا أولادهم ونصّروهم ومجّسوهم، وعن ابن عباس في رواية أخرى: هو تسمية الأولاد عبدالحرث وعبد شمس وعبدالعزى وعبدالدار ونحوها، والآثار أخرجها الطبري (١٧/٤٩٤، ٤٩٥)، وانظر: تفسير البغوي (٣/١٢٣).

(٢) انظر: لسان العرب «شرك» (١٠/٤٤٨).

(٣) قال الراغب الأصفهاني في المفردات ص ٣٢: الولد «المولود يقال للواحد والجمع والصغير والكبير. قال أبو الحسن: الولد الابن والابنة».

والجواب عن ذلك يرجع إلى قاعدة عامة وهي أن سبيل الشيطان في إغواء الإنسان بموجب ما قطع على نفسه أمام الله بعد طرده: هو معرفته لصفات الإنسان وبالتالي فهو يركب هذه الصفات في إغواء الإنسان ولا يخلقها.

والآية التي بين أيدينا تجسيم لوسائل غواية الشيطان للإنسان والتي منها استغلاله لحب الإنسان الفطري لأبنائه سواء من قبل الأب أو من قبل الأم. وبالتالي فإن حب الأبناء صفة فطرية عامة في الجنس البشري، وقد أكدت هذه الحقيقة في القرآن في عدة مواضع.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ..﴾ [آل عمران: ١٤]، وقال أيضاً: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

وكما ذكرنا مراراً أن ما من صفة فطرية في الإنسان إلا وتؤدي دوراً حيوياً في مسيرة دفة الحياة وأنه لولا غرسها في الفطرة لما استطاع الإنسان تفعيلها، فكذلك حب الولد، فإن حاجة الأبناء الماسة للرعاية، ابتداءً من الحاجات الضرورية للأبناء في الطفولة، وانتهاء بالحاجات النفسية من المحبة والسكن والطمأنينة، لا يمكن تحققها إلا بمحبة فطرية لدى الأبوين يفيضونها في جو أسري تسوده المودة والرحمة كما هو التعبير القرآني: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

ولولا هذه المحبة الفطرية لما استطاع الأبوان القيام بهذا الأمر مهما كانت قوة التكليف، فهذه الأم التي تقوى فيها هذه المحبة أكثر يصف القرآن متاعبها العظيمة إلى أن يخرج الولد على وجه الحياة في قوله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥][1]، وكذا في قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤][2].

ومع ذلك تستقبل الأم هذه الآلام في سبيل رؤيتها لوليدها صحيحاً معافى، ولو حصل له مكروه فإنها تفقد صوابها للدفاع عنه.

ويتجلى وصف القرآن لعواطف الأم وحبها لأولادها وشغفها بهم وخوفها عليهم، وحزنها لبعدهم عنها، وفرحها لقربهم منها من خلال قصة أم موسى مع ابنها في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: ١٠] أي أن فؤادها أصبح خالياً من التفكير في أي شيء ما عدا ابنها. وكادت لفرط خوفها عليه وحزنها لفراقه أن تدل عليه، لولا أن ثبت الله تعالى قلبها، وأنزل السكينة والطمأنينة في نفسها. ولما رد إليها ابنها ذهب عنها الحزن وعادت إليها سعادتها ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣][3].

بل نلاحظ أن فعالية هذه الصفة لأداء مهمتها تتضح في كون قوة هذه المحبة تزداد كلما ازداد الأبناء حاجة للرعاية، وتتمثل هذه الحاجة في فترة الطفولة.

ولذا كان من أحكام الشرع الوصية بحق الأيتام حيث إن فقدان أحد الأبوين في سن ما قبل البلوغ - الذي تبلغ فيه الحاجة للرعاية أوجها - يعني فقدان ركن هام في الحياة من شأنه أن يوفر الرعاية والأمن النفسي.

---

(١) الكره: المشقة. انظر: تفسير غريب القرآن ص ٤٠٧.
(٢) الوهن: الضعف. انظر: تفسير غريب القرآن ص ٣٤٤، ومفردات الراغب ص ٥٣٥.
(٣) انظر: القرآن وعلم النفس ص ٣٧.

ولذلك جعل أجر كافل اليتيم قربه من منزلة الرسول ﷺ حيث ورد في الحديث: **«أنا وكافل اليتيم هكذا»** وقال بإصبعيه السبابة والوسطى[1].

وبما أن هذه المحبة فطرية فينبغي توجيه هذه المحبة لصلاح الأبناء، وهو حسن التربية والتوجيه والتأديب بما يكفل استقامته ليكون عضواً فاعلاً في مجتمعه، إذ أن ذلك من حقوق الأبناء على الآباء. لا أن تكون هذه المحبة سبيلاً لتلبية حاجات الترفيه فقط وبالتالي ينشأ الطفل في تميع قد يوصله إلى الانحراف، فتتحقق مشاركة الشيطان له في ولده، لا سيما أن محبة الآباء لأبنائهم تفتح باباً للشيطان في الغواية، وبالتالي تكون النتيجة في بعض الأحوال أن يتحول الأبناء إلى أعداء، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٤، ١٥] هذه العداوة تكونت بعد مشاركة الشيطان للآباء في محبة أبنائهم فنتجت أموراً يمكن أن يصدق عليها باعتبار المحصلة أنها عداوة، ومن أمثلة ذلك:

- أن في الانشغال بهم نتيجة محبتهم ملهاة عن ذكر الله كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩].

- ما ورد في حديث الرسول ﷺ لما جاءه الحسن والحسين رضي الله عنهما يستبقان فضمهما وقال: **«إن الولد مبخلة مجبنة»**[2] فهو قد يجبن ويترك الجهاد ويخاف القتل بسبب الأبناء خشية أن يتركهم بلا عائل،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري، كتاب الأدب باب فضل من يعول يتيماً [فتح الباري (٣٦/١٠)] ومسلم كتاب الزهد باب فضل الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (١١٢/١٨).

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد (١٧٢/٤) وابن ماجه كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات (١٢٠٩/٢) ح٣٣٦٦، وقال في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات. وصححه الألباني. انظر: صحيح ابن ماجه (٢٩٥/٣).

فهم بذلك سبب للجبن، وقد يبخل ويقصر في النفقة سواء كانت الواجبة كالزكاة أو المستحبة كالصدقات لأنه يخشى أن تقصر النفقة على الأبناء فهم بذلك سبب للبخل، وكلا الأمرين مذموم شرعاً.

ولا يفوتنا أن نذكر أنه لشدة عمق محبة الأبناء في قلوب الآباء فقد كان من أحكام الشرع أن لا يقاد والد بولده كما ورد في الحديث: **«لا يقاد والد من ولده»**[1].

ثالثاً: الحياء:

إن من أعظم ما يلفت النظر عند التأمل في قصة آدم هو ما حدث له عند فتنة الشيطان له وإيقاعه في معصية الله بالأكل من الشجرة التي نهاه الله سبحانه وتعالى عنها، وما ترتب عليه من رد فعل مباشر من آدم وزوجه، يقول الله تعالى: ﴿.. فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقال: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: ١٢١].

فنجد الآيات تبيِّن أول نتيجة أو عقوبة فورية هي انكشاف العورة التي عبر عنها بالسوأة ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

ثم يعقبها رد الفعل التلقائي من آدم وزوجه ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي أقبلا يلصقان ويضعان الورق ويشبكانه ويضمان بعضه إلى بعض لستر العورة[2].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٢/١)، والترمذي: كتاب الديات، باب ما جاء في الرجل يقتل ابنه يقاد منه أم لا (١٨/٤) ح١٤٠٠، وابن ماجه: كتاب الديات باب لا يقتل الوالد بولده (٨٨٨/٢) ح٢٦٦٢، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٦٨/٧ ـ ٢٧٢).

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٢٢/٧)، تفسير القرطبي (١٨١/٧)، تفسير أبي السعود (٢٢١/٣).

وهذا لا شك يوحي بأن العورات الجسدية يخجل الإنسان فطرة من تعريتها، وأن الميل إلى اتخاذ ما يستر العورة من اللباس ونحوه هو الأصل في الحياة البشرية، قال الزمخشري: «وفيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور وأنه لم يزل مستهجناً في الطباع مستقبحاً في العقول»(١). وقال ابن الجوزي: «في الآية دليل على أن إظهار السوأة قبيح من لدن آدم، ألا ترى إلى قوله: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠] فإنهما بادرا يستتران لقبح التكشف»(٢). وقال القرطبي: «وفي الآية دليل على قبح كشف العورة»(٣) ولا ننسى أن هذا السياق قد عبَّر الله سبحانه وتعالى فيه عن العورة بالسوأة وهي كما قال البغوي: «إنما سميت كذلك لأنه يسوء صاحبها انكشافها»(٤).

ولم يكن ذكر هذا الأمر في قصة آدم بالأمر العارض، أو بالحدث الهامشي في أحداث القصة، بل قد جرى التأكيد عليه بأساليب شتى، وبتعقيبات عدة، بشكل يحفز المتأمل بأن يمضي قدماً في تدبر الآيات ومقاصدها والفوائد المترتبة عليها من هذا الباب، إذ أن التكرار من الأساليب التي تفيد التأكيد.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

فنذكر أولاً الآيات التي أعيد فيها الإشارة لذلك في سورة الأعراف ومن ثم نذكر ما يمكن استنباطه من سياق كل آية حول فطرية هذه الصفة.

قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ...﴾ [الأعراف: ٢٠]، ثم قال: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

---

(١) الكشاف (٢/٩٤، ٩٥).
(٢) زاد المسير (٣/١٨٠).
(٣) تفسير القرطبي (٧/١٨١).
(٤) تفسير البغوي (١/١٥٤).

ثم قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ [الأعراف: ٢٦]، ثم قال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: ٢٧]، ثم قال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف: ٣١].

لا شك أن تكرار الإشارة لهذا الموضوع بهذه الكثافة في حيِّز متقارب من الآيات يراد به أمر عظيم، وكأنه يريد من المتدبر أن لا يغادر تلاوة هذه الآيات حول قصة آدم إلا وقد وعى الدرس وانتبه للمقصود الرئيسي وهو أن الحياء له عمق كبير مركوز في طبع الإنسان وفطرته، ويمكن أن يستفاد من الآيات وتتاليها على هذا النسق أمور عدة حول هذا الموضوع ولكنها مترابطة في تحقيق المقصد النهائي:

١ ـ تقرر الآيات أولاً أن كشف العورات مقصد أساسي للشيطان وهدف سعى إلى تحقيقه لطبيعة الشر التي ركب عليها، وقد دلَّنا على ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: ٢٠] فالآية ذكرت الهدف من الوسوسة أولاً، ثم الوسيلة التي استخدمها للوصول إلى هدفه، أما الوسيلة فقد سبقت الإشارة إليها وهي حب آدم للخلود والملك، وأما الهدف فهو المذكور في قوله: ﴿لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾ والشاهد في قوله: ﴿لِيُبۡدِيَ﴾. ومع أن المفسرين ذكروا احتمالية أن تكون اللام هنا لام العاقبة وليست لام التعليل إلا أن مجيء قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧] بعدها من خلال التحذير من

مكائد الشيطان، هذا الأمر يقوي كون اللام هنا لام التعليل وليست لام العاقبة[1]، قال أبو حيان: «والظاهر أن اللام لام كي قصد إبداء سوءاتهما وتنحط مرتبتهما بذلك، ويسوؤهما بكشف ما ينبغي ستره، ولا يجتنبان نهي الله فيكون هو وهما سواء في المخالفة..»[2].

٢ - تذكر الروايات ارتباط هذه الآيات بواقع يحدث في الجاهلية حول هذا الموضوع. والآية وإن كانت نازلة لإبطال حالة قائمة عند مشركي مكة إلا أن عرض الموضوع بهذا الأسلوب، وفي سياق آدم وما حدث له بعد المعصية، ليقرر القاعدة بهذا الشأن وهي فطرية الحياء من انكشاف العورة، وفطرية اتخاذ اللباس لهذا الغرض، ومن ثم التعريض بمن وقع في مخالفة هذا الأمر في كل العصور ومنهم قريش.

وصورة هذا الضلال الواقع من قريش يجسد أحد المقاصد الأساسية للشيطان في حرصه على كشف العورات بشكل خاص كما ذكرنا. ويتكرر هذا المقصد بصور شتى في العصور المختلفة ولأهداف متنوعة. وما نشاهده في عصرنا الحاضر أكبر دليل على ذلك حيث تتجه وسائل الإعلام بكل ما أوتيت من قوة إلى نشر الرذيلة بأكبر معول للقيم من خلال العري الجسدي، حتى قلبوا المفاهيم فجعلوا الفضيلة والتستر وتغطية العورات ما هي إلا أعراف بيئية لبعض المجتمعات.

يقول سيد قطب: «إن ستر الجسد حياء ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئي، كما تزعم الأبواق المسلطة على حياء الناس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم وفق الخطة اليهودية البشعة التي تتضمنها مقررات حكماء صهيون. إنما هي فطرة خلقها الله في الإنسان ثم هي شريعة أنزلها الله للبشر وأقدرهم على تنفيذها بما سخر لهم في الأرض من

(١) انظر أقوال المفسرين في نوع اللام في التحرير والتنوير (٨/٥٧).
(٢) البحر المحيط (٤/٢٧٨).

مقدرات وأرزاق»، ويقول أيضاً: «والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوآتها الجسدية والنفسية وتحرص على سترها ومواراتها، والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس وتعرية النفس من التقوى، ومن الحياء من الله ومن الناس، والذين يطلقون ألسنتهم وأقلامهم وأجهزة التوجيه والإعلام كلها لتأصيل هذه المحاولة في شتى الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة، هم الذين يريدون سلب «الإنسان» خصائص فطرته وخصائص «إنسانيته» التي بها صار إنساناً. وهم الذين يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان وما يريده به من نزع لباسه وكشف سوآته..»[1].

وهكذا نرى أن الشيطان يعمد إلى العري كهدف ومقصد لآدم أولاً، ثم لذريته من بعده، فتارةً يصل بهم إلى الاحتكام بغير ما أنزل الله كما فعلت قريش، وتارةً لإغراق المجتمع بالفواحش كما يحصل في عصرنا الحاضر، وما ذاك إلا لشناعة وقبح العري في فطرة الإنسان.

٣ ـ كما تقرر الآيات أيضاً ارتباط ستر العورات بالتقوى، بل إن تسمية التقوى باللباس مجانسة لستر العورة باللباس، كما تستر التقوى عورات الباطن، وقد بدت هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ [الأعراف: ٢٦] والريش: لباس الزينة الزائد على ما يستر العورة. قال ابن عباس: «الريش والرياش ما ظهر من اللباس»[2]. وذكر اللباس الذي يواري السوءة ويكون زينة في سياق

(١) انظر: الظلال (٣/١٢٧٥ ـ ١٢٧٩).

(٢) قول ابن عباس أخرجه البخاري معلقاً في كتاب التفسير سورة الأعراف [فتح الباري (٨/٢٩٧)]. وانظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٦٦. والريش مأخوذ أصلاً من ريش الطائر لأنه زينته وهو ما ستره الله به. ويطلق الريش والرياش كما ذكر ابن منظور على الخصب والمعاش، والمال، والأثاث، واللباس الحسن الفاخر. وانظر: لسان العرب مادة «ريش» (٦/٣٠٩)]. وانظر: تفسير البغوي (١/١٥٥)، التحرير (٨/٧٥).

الإنزال ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ إما أن يقصد به الامتنان من الله سبحانه وتعالى بتيسير اللباس لهم كما امتنَّ على أبيهم لما كُشفت عورته بإلهامه ستر نفسه بأوراق الجنة[1]، أو يكون المقصود به التشريع، ويكون معنى أنزلنا: أي شرعنا لكم في التنزيل[2].

وكلا المعنيين صحيح وينتظم مع المعنى المراد إيضاحه، وإن كان الثاني أكثر اتساقاً، خصوصاً في مجال الحديث عن التقوى. لأن التقوى تتعلق بمخافة الله وبالتالي تطبيق شرعه بفعل المأمورات وترك المنهيات، ومن تلك المأمورات الأمر بستر العورة.

أما الارتباط بين ستر العورة والتقوى فيوضحه ابن القيم حيث يقول: «إن الله سبحانه أنزل لباسين: لباساً ظاهراً يواري العورة ويسترها، ولباساً باطناً من التقوى يجمل العبد ويستره، فإذا أزال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها»[3].

وكأن النفس إذا زالت عنها تقوى الله فإنها تكون بصورة بشعة تتجلى فيها صفات الضعف الإنساني وموارد الشرور، وأن تقوى الله كفيلة بتغطية وستر هذه العيوب كما يستر اللباس العورات الجسدية.

ومعلوم أن الحياء كلمة واسعة وتضم أنواعاً عدة إلا أن الأصل في الحياء والمظهر الرئيسي الحي فيه ابتداء يكون بالحياء من انكشاف العورة، ثم توسع في هذه الكلمة إلى الخجل من ظهور أي قبيح سواء كان حسياً ـ وهو العورة ـ أو معنوياً بارتكاب أي سلوك قبيح.

والذي يهمنا هنا أن نذكر أن جماع ذلك كله بتقوى الله، فإذا تحلّى

(١) انظر: التحرير والتنوير (٨/٧٣، ٧٤).
(٢) الظلال (٣/١٢٧٨).
(٣) إغاثة اللهفان (١/١١٢).

العبد بالتقوى فإنه يولد الحياء بكافة أنواعه، ولا يمكن أن يحدث معه تعرٍّ ونزع لباس وإظهار للعورات الذي هو دليل على فقدان التقوى من القلب. وإن مشهد التعري ونزع اللباس يدلّ دلالة أكيدة على فقدان التقوى من القلب.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الرابع:

صفات تتعلق بالتكليف

أولاً: الإنسان خليفة:

من أهم الأسس التي ينبغي أن يعقلها الإنسان ويتأملها حق التأمل لتكوين مفاهيم أساسية في حياته هو ما أخبرنا الله ﷻ بأنه خليفة في الأرض. وأن كونه خليفة بمقتضى الجبلة والفطرة الذي عبر عنه في القرآن بالجعل الإلهي، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣٠-٣٣].

وقبل أن ندخل في صدى وصف الخليفة على الصفات الفطرية يحسن بنا أن نستعرض سريعاً بعض المباحث التي تثار في هذا الموضوع حتى نخلص إلى المقصود:

المعنى اللغوي:

الخليفة مشتق من الخلف: ضد قدام[1]، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ

(١) لسان العرب (٨٢/٩).

أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥] والخلافة كما ذكر الراغب الأصفهاني «هي النيابة عن الغير إما لغيبه المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف وعلى الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] والخلائف جمع خليفة، وخلفاء جمع خليف»[(١)].

أما المقصود بالخليفة في الآية التي بين أيدينا فقد كان ذلك موضع خلاف بين المفسرين، وأهم هذه الأقوال:

- ما قاله ابن كثير وغيره من المفسرين: أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزخرف: ٦٠] وعليه فليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط، إذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠][(٢)] قال الطبري: وهذا القول محكي عن الحسن البصري[(٣)].

- القول الثاني: أن الخليفة خليفة الله في الأرض: وهذا القول اعترض عليه بعض المفسرين باعتبار المعنى اللغوي للخليفة من باب التنزيه. ولكن التطبيق الصحيح للخلافة ـ والله أعلم ـ كما ذكر كثير من المفسرين أن آدم عليه السلام هو خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره، وليس معنى ذلك أن ينوب عن الله تعالى في خلقه. وإنما الحاكم هو قائم بما أوجبه الله عليه من إقامة شريعته في الأرض.

---

(١) مفردات الراغب ص ١٥٥، ١٥٦.
(٢) تفسير ابن كثير (١/٩٩).
(٣) تفسير الطبري (١/٤٥١).

كما تنوعت أقوال المفسرين لمن تكون خلافة آدم؟ وذلك باعتبار المعنى اللغوي للخليفة، فنستعرض هذه الأقوال بإجمال:

١. خلافة آدم هي خلافة لمخلوقات سابقة حصل منها الإفساد وسفك الدماء، وهذا القول مستنبط من تخوف الملائكة من ذلك في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ وهذه المخلوقات قيل أنها الجن[١] وقيل: أجناس أخرى[٢].

٢. خلافة آدم مقصود بها خلافة البشر بعضهم لبعض جيلاً بعد جيل، وبه قال الحسن البصري: «إنما سمى الله بني آدم خليفة لأن كل قرن فيهم يخلف الذي قبله الجيل بعد الجيل»[٣]، وهذا القول رجحه ابن كثير كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾، قال: وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط، إذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[٤].

ومحصلة هذا القول عدم وجود مخلوقات سابقة يخلفها آدم وذريته خصوصاً أن صلة هذه الآية بما قبلها يوحي بذلك، قال ابن عاشور: «وكل هذا ينافيه سياق الآية، فإن تعقيب ذكر خلق الأرض ثم السموات بذكر إرادته تعالى جعل الخليفة دليل على أن الخليفة كان أول الأحوال على الأرض بعد خلقها»[٥].

٣. خلافة آدم هي خلافة الله في الأرض، وهو مروي عن ابن مسعود[٦].

---

(١) انظر: تفسير الماوردي (١/٩٥)، وتفسير البغوي (١/٦٠)، وتفسير ابن كثير (١/٩٩ ـ ١٠١) حيث ساق الآثار المروية في ذلك.
(٢) انظر: تفسير أبي السعود (١/٨٣)، والتحرير والتنوير (١/٣٩٩).
(٣) انظر: المحرر الوجيز (١/١٦٤)، وأخرجه مختصر الطبري (١/٤٤٧).
(٤) تفسير ابن كثير (١/٩٩).
(٥) التحرير والتنوير (١/٣٩٩).

وإذا كانت الآية لم تذكر المستخلف له فإن ما يتبادر إلى ذهن السامع مباشرة هو أنه خليفة الله تعالى، وليس هناك ما يصرفه عن هذا المعنى من آيات قرآنية أو أحاديث نبوية صحيحة[١]. وهذا الرأي ذهب إليه جمع من المفسرين منهم البغوي[٢] والقرطبي[٣]. وهو الراجح - والله أعلم - حيث يؤيده السياق والمعنى اللغوي بالإضافة إلى عدم تعارضه مع الأقوال السابقة.

وإذا كان هذا هو القول الراجح فما هو المستخلف عنه؟؟ الذي عليه أغلب المفسرين أن آدم هو خليفة الله تعالى في إمضاء أحكامه وأوامره وإقامة شرعه وهو ما ورد في قول ابن مسعود[٤].

لكن هناك من المفسرين من يذكر في أوجه الخلافة ما يتعلق بعمارة الأرض، قال أبو حيان: «وفي المستخلف فيه آدم قولان:

١ - الحكم بالحق والعدل.

٢ - عمارة الأرض (يزرع ويحصد ويبني ويجري الأنهار)[٥].

والقول الثاني الذي ذكره أبو حيان جدير بالتأمل، بل إنه يتناسب مع السياق بقوة.

---

(١) المحرر الوجيز (١/١٦٤)، وانظر: النكت والعيون (١/٩٥)، زاد المسير (١/٦٠)، الكشاف (١/١٢٤).

(٢) انظر: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم ص ٣٤٠ حيث استعرض بعض الأحاديث التي تؤيّد هذا القول.

(٣) تفسير البغوي (١/٦٠).

(٤) تفسير القرطبي (١/٢٦٣).

(٥) انظر: المحرر الوجيز (١/١٦٤)، تفسير البغوي (١/٦٠)، النكت والعيون (١/٩٥)، زاد المسير (١/٦٠)، تفسير القرطبي (١/٢٦٣).

(٦) البحر المحيط (١/١٤٠).

فالمتأمل للآيات السابقة لهذه الآية يجدها تتحدث عن خلق الأرض والسموات، فكأن الله عندما استكملت الأرض جميع الظروف المناسبة لحياة الإنسان في الأرض خلقه الله تعالى واستخلفه في الأرض كما قال للملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فأجاب الملائكة: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٣٠] فردَّ عليهم الله تعالى أنه يعلم في هذا المخلوق من الأسرار ما لا يعلمون، وما يبدون وما يكتمون، وأنهم لا يعلمون السر في استخلافه ولا بالأسرار التي أودعها في هذا المخلوق وأنه اختصَّه بعلم ما لا يعلمون.

وعليه يكون معنى الخلافة في الأرض أنه سيكون له سلطان عليها متصرفاً في مواردها، فقد سخرها الله له[1].

ومن ثم فالخلافة ـ كالوكالة والنيابة ـ تعبير عن علاقة بين الإنسان المستخلَف (بفتح اللام) وبين الله ﷻ الذي استخلفه من جهة، وهي أيضاً تعبير عن علاقة أخرى بين الإنسان الخليفة وبين كل ما استخلفه الله في الأرض من جهة أخرى[2].

❑ إن مقوم استحقاق الإنسان للخلافة هو العلم، وهو ما يبينه العنوان التالي:

الخلافة والعلم:

مقوم الخلافة كما هو واضح من سياق الآيات ليس هو قيام الإنسان بعبادة الله فقط، لأن الملائكة كان في سؤالها التعجبي لله سبحانه وتعالى ـ عند

(١) الكون والأرض والإنسان في القرآن العظيم ص ٢٨٤.
(٢) استخلاف الإنسان في الأرض نظرات في الأصول الاعتقادية للحضارة الإسلامية ص ١٨.

إعلانه جعل الخليفة في الأرض ـ أن أبدت قيامها الكامل بالعبادة، كما في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فكان رد الله عليهم: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠][1].

فما الذي لم تعلمه الملائكة وعلمه آدم فصار حقيقاً بأن يجعله خليفة في الأرض؟

نستعرض سياق الآيات لنستلهم منها بعض الحقائق:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٠-٣٤].

من خلال الآيات السابقة يتبيَّن أن أهم مقوم للخلافة هو تعليم الله له الأسماء كلها، فما هي الأسماء التي علَّمها آدم حتى استحقَّ الخلافة؟

وردت عدة أقوال للمفسرين في تحديد معنى الأسماء مثل: أسماء الملائكة، أسماء ذريته، أسماء الملائكة والذرية[2]. والقول الذي عليه أكثر

---

(١) للاستزادة في موضوع سبب سؤال الملائكة لله تعالى عن الحكمة في جعل آدم خليفة انظر ما ذكر من تحليل لهذا الموقف في تفسير ابن كثير (١/٩٩، ١٠٠)، وانظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٤) وما بعدها، وكذلك البحر المحيط (١/١٤١).

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/١١٢)، المحرر الوجيز (١/١٧٠)، النكت والعيون (١/٩٩).

المفسرين[1] هو أن الأسماء: أسماء جميع الأشياء، يدلُّ عليه فعل البخاري في تفسير هذه الآية، حيث أورد في هذا الباب حديث: «**يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلَّمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك...**»[2]. قال ابن كثير: «فدلَّ ذلك على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات...»[3].

وقد ذكرنا سابقاً في معنى الخليفة في الأرض أنه يكون سيداً عليها متصرفاً في مواردها، وما ذاك إلا بما علَّمه الله إياه من علم يتعلَّق بهذه الأرض.

هذا العلم الذي أودعته فطرنا يتمثل في استعداد الإنسان لكسب المعارف والقدرة على تحصيل العلم الكسبي بخلاف الملائكة التي نفى الله عنها كل علم كسبي كما في قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البَقَرَة: ٣٢]، يقول الشيخ محمد عبده: «وكل حي من الأحياء المحسوسة والغيبية فإن له استعداداً محدوداً وعلماً إلهامياً محدوداً وعملاً محدوداً.. وأما الإنسان فقد خلقه الله ضعيفاً كما قال في كتابه: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النِّساء: ٢٨]، وخلقه جاهلاً كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، ولكنه على ضعفه وجهله عبرة لمن يعتبر، وموضع لعجب المتعجب، لأنه مع ضعفه يتصرف في الأقوياء، ومع جهله في نشأته يتعلم جميع الأسماء.. ويعطي قوة أخرى تتصرف بشعوره وإحساسه، تصرفاً يكون به السلطان على هذه الكائنات فيسخرها ويذلِّلها بعد ذلك كما تشاء، وتلك القوة الغريبة هي التي يسمونها

---

(١) وإليه ذهب ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وأقوالهم أخرجها الطبري (١/٤٨٣ ـ ٤٨٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، سورة البقرة باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [فتح الباري (٨/١٦٠)].

(٣) تفسير ابن كثير (١/١٠٤، ١٠٥).

العقل ولا يعقلون سرَّها. فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العمل، فهو على ضعف أفراده يتصرف في الكون، تصرفاً لا حدَّ له بإذن الله وتصريفه، وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب والأحكام الطبيعية ليظهر بها أسرار خليفته وملكه الأرض وسخر له عوالمها، أعطاه أحكاماً وشرائع حد فيها لأعماله وأخلاقه حداً.. نعم إن هذا العلم الواسع لا يعطاه فرد من أفراد الإنسان ولا مجموع النوع دفعة واحدة فيشابه علمه علم الله... فهو على سعة علمه لم يؤت من العلم الإلهي إلا قليلاً وهو مع ذلك أوسع مظاهر العلم الإلهي»[1].

وبذلك يكون الله تعالى علَّم آدم اللغة حتى يستطيع أن ينطق بها أسماء المخلوقات ثم أخذها ذريته بالسماع وتعددت اللغات بعد ذلك حسب البيئات المختلفة. حقاً لقد ورث الإنسان عن آدم هذا الاستعداد الفطري على مدى العصور، وظل يكشف به من أسرار هذه الأرض وقوانين طبيعتها ما مكَّن له من السيطرة عليها، والتصرف في مواردها، وبذلك تحقَّق استخلافه وسلطانه عليها[2].

وخلاصة القول:

أن الإنسان مفطور على سيادة الكون، والتصرف في المخلوقات الأخرى المسخرة له، لينتفع منها في حياته. وآلته في ذلك استعداده الفطري لاكتشاف المجهول والتعرف على ما يحيط به من مخلوقات، وخصائص كل مخلوق، والاستزادة من العلم بشكل عام، وتوظيف ذلك ما أمكن في استغلال طاقات الأرض ومواردها لعمارة الأرض.

---

(١) انظر: تفسير المنار (١/٢٥٩ ـ ٢٦١). وانظر: القرآن وقضايا الإنسان ص ٤٩، ٥٠.

(٢) الإنسان في القرآن الكريم أ.د.السعيد عاشور ص ١٦٦، وانظر أيضاً: البناء النفسي في الإنسان (دراسة من فيض القرآن) ص ٣٢، ٣٣ حيث تحدث عن كون اللفظ رمزاً لمعان في النفس، واللغة بوجه عام هي أداة التفكير وبه تميز عن سائر المخلوقات.

ولكن هذا الاستعداد الفطري شأنه شأن الاستعدادات الفطرية الأخرى، قد حد له الشرع ضوابط وتنظيمات ترتفع بهذا المخلوق المكرم إلى أحسن تقويم، فينبغي استحضار عظمة الله في هذه المخلوقات المسخرة، بحيث يقوده ذلك إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١]، وقال: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [الحديد: ٧]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: ٢٠].

فالإنسان في خلافته ينبغي عليه أن تكون تعاملاته كلها مع كل المخلوقات على أن الله استخلفه فيها، فيسير في كل حركاته وسكناته على منهج الله، سواء في الوسائل أو الغايات. وبذلك يحقق التوازن بين كل استعداداته الفطرية، وهكذا تكون السعادة للسائر على منهج الله لأن الله هو الذي خلق هذا الإنسان، ويشرع له من الأحكام والحدود والضوابط ما يكفل تحقيق كل نوازع النفس بتوازن دون أن يطغى جانب على آخر.

لكن حين تضل الإنسانية في منهجها على غير هدى من الله، وتعتمد في شؤون حياتها على الجانب المادي فقط، من حيث تحقيق وسائله وأهدافه، فإن النتائج حتماً ستكون مدمرة، لأن الموازين ستنقلب وتصبح الماديات أغلى من الإنسان، وسيستعبد الإنسان ويذل لقاء توفير قيمة مادية أو شيء مادي، بينما هي خلقت مسخرة لخدمته واستخلف هو في الأرض ليكون سيداً عليها. فهو إذن أعزُّ وأكرم وأغلى من كل شيء مادي[1].

أما على مستوى الفرد في المجتمع المادي فإنه أكثر سوءاً لأنه يعيش

(١) انظر: الظلال (١/٦٠) بتصرف.

لذاته ومتاع حياته كما ينشأ مع ذلك جنباً إلى جنب حب الشهوات وحب السيطرة والأنانية والطمع المادي..[1].

ولذلك فإن العمارة المادية التي قد تعمرها الحضارة المادية هي وسيلة لإشباع دوافعه العضوية فقط بعد أن انحرفت فطرهم الدينية فأصبحوا كالأنعام التي كان خلقها ومعيشتها لإشباع الجانب المادي فقط، حيث اقتصرت فطرتها على ذلك.

وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد: ١٢].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

وكل هذا لتغليبهم جانب الجسد على الروح.

ثانياً: فطرة التدين:

يدور جدل كبير في موقع الدين من الفطرة، فهل الإنسان مفطور على الدين أم أنه خُلق مستعداً لكل من الخير والشر ثم هو يختار طريقه؟

وبالإجابة على هذا السؤال نستعرض النصوص الواردة في ذلك ونعلّق عليها بإيجاز بقدر ما يعنينا في موضوع البحث.

ونبدأ من النصوص بما يتعلق بآدم عليه السلام موضوع البحث،

(١) انظر: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن ص ٤٢٠ بتصرف.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٤].

وبالرغم من خلاف المفسرين في تحديد القصد الدقيق في كيفية حصول هذا الإشهاد[1]، إلا أن الذي يعنينا هو اتفاقهم على المقصود العام من الآية، وهو أن الله فطر عباده على الدين الحنيف القيم، بحيث تقوم عليه الحجة حتى لو كان بين أبوين كافرين، فقد أودع الله في الفطر ما يدلُّ على أن ما مع الآباء باطل وأن الحق ما جاءت به الرسل. وهذه الآية تركّز على جانب التوحيد من الدين.

---

(١) اختلف المفسرون في تحديد كيفية حصول الإشهاد، فذهب فريق من المفسرين على تفسير الآية بالحديث الوارد في ذلك: «**مسح ربك ظهر آدم فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فأخذ مواثيقهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى**». والحديث يروى مرفوعاً ويروى موقوفاً على ابن عباس، وممن أخرجه مرفوعاً الإمام أحمد في مسنده (١٥١/٤) حديث رقم ٢٤٥٥، وصححه أحمد شاكر في تحقيقه للمسند والحاكم في المستدرك: كتاب الإيمان، تفسير ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ (٢٧/١) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر. والطبري في تفسيره (٢٢٢/١٣) وما بعدها. وعدوا الإشهاد المذكور في الآية هو نفسه المذكور في الحديث.

وذهب جمع آخر من المفسرين كما ذكر ابن كثير: أن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد.. وقوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي: أوجدناهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً. والشهادة تارة تكون بالقول وتارة تكون حالاً كما في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ﴾ [التوبة: ١٧] أي حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنهم قائلون ذلك.. فلو كان قد وقع هذا لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه. ومضى يسوق الحجج على صحة هذا القول بالأحاديث العامة في الفطرة.

والرأي الثاني هو الذي تقوّيه النصوص الواردة في الفطرة من الكتاب والسنة، وهذا ما سنراه إن شاء الله في النقد.

وتمام هذا الموضوع في النصوص الأخرى، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الرُّوم: ٣٠، ٣١].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسُّون فيها من جدعاء؟»** ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الرُّوم: ٣٠][1]. وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد قال: قال رسول الله ﷺ ذات يوم في خطبته: **«ألا إن ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم، مما علمني يومي هذا: كل مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل سلطاناً...»** الحديث[2].

من هذه النصوص نستنتج عدة أمور تكون في مجموعها تصوّراً عن الدين والفطرة:

- في قوله: ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ خطاب العموم يدخل فيه جميع البشر مسلمهم وكافرهم، فدلّ على أن فطرة الدين في الإنسان من حيث كونه إنساناً، لا بيئة ولا مجتمع ولا تقليد.
- في قوله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ أضاف الفطرة إليه وهي إضافة مدح لا

(١) الحديث أخرجه البخاري: كتاب التفسير، تفسير سورة الروم، باب ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [فتح الباري (٨/٥١٢)] واللفظ للبخاري ومسلم كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (١٦/٢٠٧).

(٢) الحديث أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (١٧/١٩٧).

إضافة ذم، فعلم أنها فطرة محمودة لا مذمومة كدين الله وبيته وناقته[1].

- المركوز في الفطرة معرفة الله سبحانه وتعالى ومحبته وتعظيمه وإجلاله والخضوع له والإخلاص له ومحبة شرعه وإيثاره على ما سواه. فالنفس تعرف ذلك وتشعر به مجملاً، وتفصلاً بعض التفصيل، فجاءت الرسل تذكرها بذلك وتنبهها عليه وتفصّله لها وتبيّنه وتعرّفها الأسباب المعارضة لموجب الفطرة، المانعة من اقتفاء أثرها، وعليه فإن الشخص الخارج عنها لا يحدث فيها ذلك ويجعلها فيها بعد أن لم يكن، وإنما يذكرها بما فيها وينبهها عليه ويحركها له ويفصله لها، ولذا سمى الله سبحانه ما كمل به موجبات الفطرة بـ ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ وجعل رسوله ﷺ مذكراً فقال: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١﴾ [الغَاشِيَة: ٢١]، وقال: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩﴾ [الأعلى: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ [القَمَر: ١٧].

فإذا لم يحصل مانع يمنع الفطرة عن مقتضاها استجابت لدعوة الرسل ولا بد، بما فيها من المقتضى، كمن دعا جائعاً أو ظمآن إلى طعام وشراب، فإنه يجيب لا محالة إلا إن اعترضه سبب يمنعه من ذلك[2].

- لا شك أن الأديان السماوية كلها اشتركت في أن أصولها هي مقتضيات الفطرة، وهي ما ذكرناه في الفقرة السابقة من معرفة الله، ومحبته وتوحيده والخضوع له، ومحبة شرعه، أما الإسلام فقد تميّز عن سائر الأديان بملازمة أحكامه لمقتضيات الفطرة في أصوله وتفاريعه

(١) شفاء العليل ص ٢٨٦.

(٢) انظر: شفاء العليل ص ٣٠١، ٣٠٢.

على حد سواء. ولذا كان عاماً صالحاً لكل زمان ومكان، ناسخاً للأديان السابقة، إذ أن موافقته للفطرة الإنسانية مهما كان حالها يؤهِّله لذلك[1].

- تبيَّن مما سبق أن الناس مفطورون على دين الله وأن ذلك موجب فطرتهم ومقتضاها يجب حصوله فيها إن لم يحصل ما يعارضه، ويقتضي حصول ضده، وأن حصول ذلك فيها لا يقف على وجود شرط بل على انتفاء المانع. فإذا لم يوجد فهو لوجود منافيه لا لعدم مقتضيه. ولهذا لم يذكر النبي ﷺ لوجود الفطرة شرطاً بل ذكر ما يمنع موجبها حيث قال: «**فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه**» فحصول هذا التهويد والتنصير موقوف على أسباب خارجة عن الفطرة، وحصول الحنيفية والإخلاص ومعرفة الرب والخضوع له لا يتوقف أصله على غير الفطرة وإن توقف كماله وتفصيله على غيرها[2].

- ولو تأمَّلنا قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ لوجدنا أنه لا يراد بذلك أن الفطرة لا تتغير بعد الخلق، بل نفس الحديث يبيِّن أنها تتغير ولهذا شبهها بالبهيمة التي تولد جمعاء ثم تجدع ولا تولد بهيمة مجدوعة، وقد قال تعالى عن الشيطان: ﴿وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النساء: ١١٩]، فالله أقدر الخلق على أن يغيِّروا ما خلقهم عليه بقدرته ومشيئته. وأما تبديل الخلق بأن يخلقوا غير تلك الفطرة فهذا لا يقدر عليه إلا الله، والله لا يفعله كما قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ ولم يقل لا تغيير فإن تبديل الشيء يكون بذهابه وحصوله بدله[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/٩٢).

(٢) شفاء العليل ص ٣٠٣.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٩٥.

انحراف الفطرة:

قد لا تكون عبارة بعض ممن كتب في الدراسات النفسية عن الفطرة دقيقة عندما قالوا: «أن هناك نزعة فطرية لدى الإنسان، جعلته على مرّ العصور والأزمان يبحث عن خالق أو إله، وأن الدارس لتاريخ البشرية يرى أنه ليس هناك مجتمع صغير أو كبير قديم أو حديث، بدائي أو متحضّر، لم يصنع تصوراً للإله، فأقام الشعائر ومارس من أجله العبادات ليتقرب بها إليه، ولا يدلُّ ذلك إلا على وجود نزعة فطرية داخل الإنسان تحاول ربطه بقوة كبرى يطمئن لها فتخفض توتره وقلقه»(١).

ذلك أن النزعة الفطرية كما ورد في الكتاب والسنة، تدلّه إلى توحيد الله ومحبته والخضوع له كما سبق أن ذكرنا في الاستنباطات من النصوص الشرعية، وليس كما ذكروا من أن النزعة الفطرية تربطه بقوة كبرى يطمئنّ لها، أو إلى تصورات مختلفة للإله وإن كانت تلك الدراسات التاريخية تحكي الواقع إلا أن تفسيرها هو أن تلك التصورات المختلفة عن الإله وتقديم الشعائر لها هي صور لتغيير الفطرة حسب العوامل الخارجية التي تعرضت لها تلك الشعوب.

وعليه يحسن أن نعرض للأسباب التي تؤدي إلى انحراف الفطرة عن مسارها الصحيح من خلال النصوص الواردة في ذلك.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]. هذه الآية توضح لنا بجلاء المبررات التي يحتج بها من انحرفت فطرتهم عند الحساب يوم القيامة، حيث ذكر سبحانه وتعالى ما يمكن أن يحتجَّ به من ضلَّ عن توحيد الله.

(١) البناء النفسي في الإنسان ص ١٢٤.

ثالثاً: الخطأ والندم:

قال تعالى في قصة آدم: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٦-٣٩].

وقال أيضاً: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٢ ـ ٢٤].

الآيات الواردة في قصة آدم تحكي مشهد كيفية وقوع آدم في المعصية بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها، ثم مشهد الندم والاستغفار ومن ثم قبول توبته. ولم تكن حكاية ذلك المشهد عبثاً أو تشهيراً بأول الأنبياء، بل كان ذلك لحكم كثيرة أرادها الله في سوق القصة بالأساليب المختلفة في مواضعها المتعددة. فكل ما ورد في هذه القصة من حوارات ووسائل وغايات لا بد أن يؤخذ بعين الاعتبار أنه يمثل صفات للإنسانية بشكل عام، وأهم ما ورد فيها ما يتعلق بالتكليف وطبيعة آدم وذريته من هذا القبيل.

جاء في تفسير المنار: «إذا كان من حكمته تعالى فيما ذكر من معصيتي أبوي الإنس والجن ظهور استعدادهما من إظهار حكمة الله تعالى في الجزاء على الذنوب في حالي التوبة منها والإصرار عليها والعبرة والموعظة، وحسن الأسوة، وسوء القدوة والابتلاء والجهاد وغيره، وإذا كانت معصية الأول بسبب وسوسة الآخر، فلا خفاء في استمرار ذلك في ذريتهما لأنه من مقتضى فطرة نوعيهما»[1].

(١) تفسير المنار (٧/٣٤٢).

وسياق القصة بهذا الترتيب يوحي بأن الهدف من ترتيب الأحداث في القصة: هو تعليمهم بطبيعتهم من جهة التكليف، وما الذي يجب عليهم عند تكرر مثل هذه التجربة.

يقول سيد قطب: «لقد قال الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: ٣٠] إذن فآدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى. ففيم إذن كانت تلك الشجرة المحرمة؟ وفيم إذن كان بلاء آدم؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى؟ لعلني ألمح أن هذه التجربة كانت تربية لهذا الخليفة وإعداداً. كانت إيقاظاً للقوى المذخورة في كيانه. كانت تدريباً له على تلقّي الغواية، وتذوق العاقبة، وتجرّع الندامة، ومعرفة العدو والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين. إن قصة الشجرة المحرمة، ووسوسة الشيطان باللذة، ونسيان العهد بالمعصية، والصحوة بعد السكرة، والندم وطلب المغفرة إنها هي تجربة البشرية المتجددة المكررة.

لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقرّ خلافته مزوداً بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلاً، استعداداً للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيراً»(١).

وبناءً على ما ورد في قصة آدم في حكاية المعصية والاستغفار نلقي الضوء على بعض الحقائق المتعلقة بذلك:

طبيعة الإنسان:

المخلوقات التي دارت بينهم الأحداث في الملأ الأعلى هم آدم والملائكة والشيطان.

أما الملائكة فقد اتّضحت طبيعتهم عندما قالوا لله سبحانه وتعالى:

(١) في ظلال القرآن (١/٩٥).

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] فهم جنس محض للخيرية ومسخر لطاعة الله ﷻ ولا تقع منهم المعصية كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، فتركهم للمعصية وفعلهم للطاعة جبلّة لا يكلفهم مجاهدة لأنه لا شهوة لهم. وهم عباد مكلّفون يتّصفون بكلّ صفات العبودية، قائمون بالخدمة منفّذون للتعاليم، وعلم الله بهم محيط لا يستطيعون أن يتجاوزوا الأوامر خائفون وجلون. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨][1].

وأما الشيطان فلا نعلم على وجه اليقين ما كان عليه من الطاعة قبل خلق آدم[2]، أما بعد أن خلق الله آدم وأمره بالسجود فإنه قد خرج عن طاعة الله حيث فسق عن أمر ربه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

ووصفه في آيات أخر بالاستكبار والكفر: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص: ٧٤]. وبعدها سأل الله النظرة إلى يوم القيامة ليتمّ له إغواء ذرية آدم إلى يوم القيامة. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٧٩-٨٣].

---

(١) انظر: عالم الملائكة والأبرار ص ٢٩.

(٢) وردت آثار كثيرة تحكي أقوالاً عن أصل الشيطان وأنه من الملائكة وأنه كان خازناً للجنة أو للسماء الدنيا وحاله قبل الأمر وبعده، وغالبها من الإسرائيليات التي ينبغي أن يصان التفسير عنها. وقد ذكرها ابن كثير في تفسيره وعلق على ضعفها. تفسير ابن كثير (٤/٥٧، ٣٩٧). وانظر عالم الجن والشيطان للأشقر ص ١٧.
والتحقيق كما ذكر ابن تيمية أن إبليس كان مأموراً بالسجود مع الملائكة فامتنع وعصى فهو منهم باعتبار صورته، وليس منهم باعتبار أصله ولا باعتبار مثاله [مجموع الفتاوى (٤/٣٤٦)].

أما آدم موضوع البحث فتتبين طبيعته في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

فهو قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله، قبضة من طين الأرض تتمثل في حقيقة الجسد - عضلاته وأعضائه وأحشائه - وما ينجم عنها من مطالب كالأكل والشرب والجنس، وبالتالي فالشهوات كلها دوافع فطرية تعدّ نشاطاً لها.

وهو أيضاً نفخة من روح الله تتمثل في الجانب الروحي للإنسان تتمثل في الإيمان بالله وعبادته، وتتمثل في الوعي والإدراك والإرادة، وتتمثل أيضاً في كل القيم والمعنويات التي يمارسها الإنسان، مثل: البر والرحمة والعدل وغيرها... هي نشاط لهذا الجانب أيضاً[1].

قال ابن القيم: «وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة أو تقية وإلا فالروح بدون البدن لا فجور فيها»[2].

فالروح والجسد في القرآن الكريم ملاك الذات الإنسانية تتم بهما الحياة ولا ينكر أحدهما في سبيل الآخر منه. فلا يجوز للمؤمن أن يبخس للجسد حقاً ليوفي حقوق الروح، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقاً ليوفي حقوق الجسد، ولا يحمد منه الإسراف في مرضاة هذا ولا مرضاة ذاك، وعلى الله قصد السبيل[3]. وليس السعي في سبيل الدنيا ضلالاً عن سبيل الآخرة، وليس في القرآن فصام بين روح وجسد أو انشقاق بين عقل ومادة أو انقطاع بين سماء أو أرض، أو شتات في العقيدة يوزع الذات الإنسانية،

(١) انظر: دراسات في النفس الإنسانية ص ٤٣، ٤٤ بتصرف.
(٢) الضوء المنير (٦/٣٦٩).
(٣) الإنسان في القرآن للعقاد ص ٢٣.

بين ظاهر وباطن وبين غيب وشهادة، بل هي العقيدة على هداية تحسن بالروح كما تحسن بالجسد في غير إسراف أو جور عن السبيل ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩][1]. ولا ننسى في ذلك رد الرسول ﷺ على النفر الذين تقالّوا عبادته.

فعن أنس بن مالك قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلّي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج. فجاء رسول الله ﷺ فقال: **«أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**[2].

وبعد هذه اللمحة السريعة الموجزة عن طبيعة الإنسان نعود للموضوع الأساسي في هذا البحث، وهو بيان أن من فطرة الإنسان وقوعه في الخطأ، ومن فطرته أيضاً القدرة على العودة والاستغفار.

فحبّه للشهوات التي ذكرنا أنها من متطلبات الجسد جعلت فيه نقطة ضعف أصيلة، فهو لا يصمد في كل حالة ولا تقوى إرادته الضابطة على المقاومة دائماً ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥] ولكنه ليس ضعفاً أبدياً، ولا هي زلة لا قيام منها، فهو يملك أن يفيق من زلته بأن يرفع وجهه إلى خالقه ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البَقَرَة: ٣٧]. وتلك قيمة رئيسية من قيم حياته فهو عرضة للضعف أمام الشهوات ولكنه كذلك مزود بالقدرة على الإفاقة من هذا

(١) الإنسان في القرآن للعقاد ص ٢٥.

(٢) الحديث أخرجه البخاري: كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح [فتح الباري (١٠٤/٩)].

الضعف بالتوجه إلى الله وفي صميم فطرته أنه يفعل هذه وتلك ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧-١٠][1].

قال ابن كثير: أي دسسها، أي أهملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله ﷻ[2].

ويجسد هذه الطبيعة للإنسان، المختلفة عن خلق الملائكة والشياطين حديث رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم»**[3]، وحديث: **«كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»**[4].

ويمكن القول أن الفطرة السليمة عند الإنسان تدعوه تلقائياً إلى الشعور بالذنب حين لا يستقيم الفعل أو السلوك مع فطرته فيستغفر ربه ويدعوه خوفاً وطمعاً، خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه[5].

ولا بدَّ هنا أن ننوِّه عن فكرة الإسلام عن الخطيئة والتوبة، حيث ضلَّ فيها كثير من الأديان والمعتقدات، وهي كون الخطيئة فردية والتوبة فردية. فآدم أخطأ فكانت معصيته عليه وحده، واستغفر من ذلك فتاب الله عليه ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

---

(١) دراسات في النفس الإنسانية ص ٣١، ٣٢.

(٢) تفسير ابن كثير (٨/٤٣٥).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار (١٧/٦٥).

(٤) الحديث أخرجه الترمذي: كتاب القيامة، باب ٤٩ (٤/٦٥٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر التوبة (٢/١٤٢٠)، وصححه الألباني، صحيح الجامع الصغير (٤/١٧١).

(٥) البناء النفسي في الإنسان (دراسة من فيض القرآن الكريم) ص ٢٨.

فكلّ إنسان يتحمَّل ذنبه ووزره وليست هناك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده كما تقول الكنيسة وليس هناك تكفير لاهوتي كالذي تقول الكنيسة: إن عيسى عليه السلام صلب تخليصاً لبني آدم من خطيئة آدم. فخطيئة آدم كانت خطيئته وحده، والتوبة عليه كانت بعد استغفاره، وكذلك كل ولد من أولاده، والطريق للتوبة مفتوح في يسر وبساطة، ويوحي إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحُجرَات: ١٢][(١)].

رابعاً: الثواب والعقاب:

يرتبط بالموضوع السابق ـ الخطأ والندم ـ نزعة فطرية أخرى لا تنفصل عنها وهي النزعة للإثابة والبعد عن العقاب، وهي محور مهم من محاور الفطرة في الإنسان ولها تأثيرها في سلوكه وتشكيل بنائه النفسي، فنزعة الإنسان في أي زمان وفي أي مكان إلى السلوك الذي يؤدي به إلى الإثابة ونزعته للسلوك الذي يؤدي به إلى العقاب نزعة مغروسة في ضمير الإنسان[(٢)].

قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البَقَرَة: ٣٧-٣٩]. وبالتالي فإن أعظم وسائل القيام بالعبادات والتكاليف الشرعية، وتجنُّب الذنوب والمعاصي والعمل بتعاليم الإسلام وفقاً لأحكام القرآن الكريم والسنة النبوية، تكمن في إثارة دوافع الترغيب والترهيب معاً، وهذا ما نلمسه في الأسلوب القرآني عند عرض الشريعة بشكل عام لأن استخدام الترهيب وحده قد يؤدي إلى طغيان الرهبة على الأنفس فتعيش في الخوف والقلق واليأس من رحمة ربها، واستخدام

(١) الظلال (٦١/١) بتصرف.

(٢) البناء النفسي في الإنسان (دراسة من فيض القرآن) ص ٢٥.

الترغيب وحده قد يؤدي إلى سيطرة الأمل برحمة الله تعالى على الأنفس فتركن إلى الراحة والاطمئنان والغفلة[1].

وهذه النقطة ينبغي أن لا يغفل عنها المربُّون سواء داخل الأسرة أو المدرسة أو القوانين التي تحكم العمل بشكل عام، فالمزج بين الترغيب والترهيب كفيل بالإنتاجية وحصول الثمرة المقصودة، أما الاقتصار على أحدهما ففي الغالب تنجم عنه نتائج سلبية حتى لو حصل بعض الإنتاج.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنة وعلم النفس. مجمع البيان الحديث لسميع عاطف الزين (٢/١٢٦).

الفصل الخامس:

آدم والشيطان

من أبرز الدروس المستفادة من قصة آدم هي ما كان من موقف إبليس من خلق آدم والحوارات التي صدرت من إبليس لربه، ثم لآدم في محاولة إغوائه، إلى أن حكم الله بينهم بالإهباط للأرض بعد تحذير آدم والإعلان له أن إبليس عدوٌّ له ولذريته.

هذا الدرس جدير بالتأمل للإنسان بشكل عام؛ لأنه بالاحتراز من الشيطان يكون الفلاح، وبإهمال هذا الجانب يكون الإنسان فريسة له ولحزبه.

وهو جدير بالتأمل أيضاً للباحث في موضوع الإنسان بالقرآن لأنه كما رأينا في فصول البحث كيف تبيَّنت بعض الصفات من خلال مواقف آدم مع الشيطان.

إن الآيات التي تحدثت عن توعد إبليس أمام الله بغواية آدم وذريته ذكر فيها بعض وسائله في إغواء بني آدم وكون هذه الوسائل تذكر عموماً للذرية تدلُّ على أن هذه أبواب للشيطان من صفات فطرية للإنسان، وقد نكون تناولنا بعضها في ثنايا البحث لكن يبقى البعض الآخر نحاول إبرازه من خلال استقراء الآيات الواردة في ذلك.

ومما يدلُّ على كون هذه الوسائل تطرق صفات فطرية للإنسان أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بما مكَّن الله إبليس من معرفة هذا المخلوق ـ وهو آدم ـ بحيث يعرفه أكثر مما يعرف الإنسان نفسه.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

وفي الحديث: «**إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم**»(١). وفي رواية: «**فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»(٢).

قال ابن عباس: «جعلهم الله يرون من ابن آدم مجرى الدم وصدور بني آدم مساكن لهم، فهم يرون بني آدم وبنو آدم لا يرونهم»(٣).

والذي يظهر والله أعلم أن تمكين الله الشيطان رؤية آدم وبنيه تشمل رؤية صفاتهم سواء الصفات الفطرية التي يشترك فيها بنو آدم، أو الصفات الفردية لكل إنسان، بحيث يتمكن من معرفة محبوبات النفس ومكروهاتها، وبالتالي يمكن إغواؤه بأي باب منها، خصوصاً إذا تأملنا الحديث «**مجرى الدم**» حيث صوَّر شدة ملازمته للإنسان وإطباقه عليه كملازمة الدم وانتشاره في الجسم(٤).

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ومن الأبواب التي طرقها الشيطان وسبق ذكرها:

حب الخلود ـ حب الملك ـ حب المال ـ حب الولد.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب: هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد [فتح الباري (٤/٢٧٨)].

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب: هل يدرأ المعتكف عن نفسه [فتح الباري (٤/٢٨٢)].

(٣) زاد المسير (٣/١٨٤).

(٤) قال ابن حجر في شرح الحديث: «يبلغ، يجري. قيل: هو على ظاهره وأن الله تعالى أقدره على ذلك، وقيل: هو على سبيل الاستعارة من كثرة إغوائه وكأنه لا يفارقه كالدم فاشتركا في شدة الاتصال وعدم المفارقة». [فتح الباري (٤/٢٨٢)].

وتبقى أبواب أخرى سلكها الشيطان للتأثير على آدم، وبالتالي تبين بعض صفات النفس الإنسانية، منها:

استجابة النفس للنصيحة:

قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٢١] فيذكر لنا الله سبحانه وتعالى في قصة آدم أن إبليس لما ألقى وسوسته لآدم وزيَّن الأكل من الشجرة، أعقب ذلك بوسيلة أخرى مدعمة للوسائل السابقة (حب للخلود - حب للملك) بأن ادَّعى أنه ناصح وأن نصيحته هذه لم يكن هو الوحيد فيها، بل هو ضمن ناصحين كثيرين ﴿لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

والنصح والنصيحة كلمة جامعة يعبر بها عن حسن النية وإرادة الخير من قول أو عمل، وفي الحديث: **«الدين النصيحة»**[(١)].

ويكثر إطلاق النصح على القول الذي فيه تنبيه للمخاطب إلى ما ينفعه ويدفع عنه الضر، وضده الغش.

ويكثر أن يعدى فعله باللام على معنى الاختصاص للدلالة على أن الناصح أراد من نصحه ذات المنصوح لا جلب خير لنفس الناصح، ففي ذلك مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح مقصوداً بها جانبه لا غير[(٢)].

ولذلك فإن القيام بالنصيحة من الصفات المطلوبة من المؤمن فهو من التعاون على البر والتقوى وهو أحد أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي الحديث: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (٢/٣٧)، وذكره البخاري ترجمة للباب في كتاب الإيمان (١/١٣٧).

(٢) التحرير والتنوير (٩/١٩٤).

(٣) الحديث أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: **«الدين النصيحة»** [فتح الباري (١/١٣٧)]، ومسلم كتاب الإيمان باب بيان أن الدين النصيحة (٢/٣٩).

ولما كانت النصيحة أحد مداخل النفس البشرية للتأثير عليها فقد استخدمها الأنبياء في دعوة أقوامهم ومن ذلك ما ورد في سورة الأعراف حيث ذكرت قصص الأنبياء ودعوتهم لأقوامهم على مرّ العصور، فكثر التعبير فيها بالنصيحة، فنوح يقول لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وهود يختتم قوله بالدعوة بقوله: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وصالح يقول: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٩]، وشعيب يقول: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٩٣].

والنفس الإنسانية تستأنس لسماع نصيحة الآخرين، خصوصاً عندما يحصل التردد في الأمر، حيث يفتقر إلى المشورة والنصيحة، لذا فقد حصل التزيين من إبليس حين لم يقدم آدم مباشرة على الأكل، فسارعه بوسيلة أخرى علم إبليس تأثيرها على النفس، وهي استئناسه للنصيحة، فسارع بالقسم بأنه ناصح، ولم يقتصر على تقديم نفسه على أنه الناصح الوحيد في هذا الموقف، بل أبدى لهما أنه ضمن العديد من الناصحين، فلم يكن رأيه هو فقط كما ادّعى ﴿لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ حتى أوقع آدم في المعصية، بل وذكر هنا اللام في ﴿إِنِّى لَكُمَا﴾ للدلالة على الاختصاص كما ذكرنا على أنه قصد نفع المنصوح لا جلب خير لنفس الناصح.

وإبليس لما فقه دور النصيحة في التأثير على النفس فإنه يقوم بدور مزدوج الأول هو المذكور سابقاً وهو إغواء الإنسان بتقديم نفسه في الغواية على أنه ناصح، والثاني أنه يصدُّ النفس عن قبول النصيحة المخلصة، لعلمه أنها وسيلة من وسائل الاستقامة إذا تلقَّاها المتردد من ناصح مخلص، ووسيلته في ذلك: تزيين الشهوات والمعاصي بحيث إذا انغمست النفس في المعاصي أبغضت النصيحة وكرهت الناصح، وبالتالي فإن النفس السوية الباقية على فطرتها تحبُّ النصح وتستجيب له. أما للنفس التي تمكن

الشيطان منها فإنها لا تحبه كما ذكر تعالى عن قوم صالح: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٩].

الاستجابة للوعد:

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: ٦٤].

وقال: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠] ومعنى عدهم: أعطهم المواعيد بحصول ما يرغبونه، لأن العدة: التزام إعطاء المرغوب[1]. ولذا فإن النفس الإنسانية بطبعها يمكن أن تقدم على الأمر إذا رغبت في عاقبة هذا الأمر بأي محبوب عن طريق إغرائها بالوعد بحصول المطلوب. وبالرغم أن كل إنسان بحسب طباعه وكل موقف وما يناسبه، إلا أن القاسم المشترك أن الباب الذي يفتح على أبواب النفس الأخرى للاستجابة هو الوعد. ولما كان الوعد ذا تأثير بالغ على النفس لحضّها على الإقدام على الأمر ترغيباً أو ترهيباً، فقد وعد الله المؤمنين الجزاء العظيم على الإيمان، والعذاب المقيم على الكفر، وذلك في اليوم الآخر، فكان دافعاً للإقدام على الحرص على الإيمان ومتابعة ما يريده الشرع من المسلم؛ لأن وعد الله حق وواقع وصدق كما ورد وصفه في القرآن. قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥]، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠]، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾ [المرسلات: ٧].

ولحسن عاقبة اتباع هذا الوعد الصادق يغتبط المؤمنون يوم القيامة عندما يجدون ما وعدهم الله حقاً فيحمدون الله على صدق الوعد، قال

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٥/١٥٤، ١٥٥).

تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزُّمَر: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: ٤٤].

ومما يدلُّ أيضاً على سهولة استجابة النفس للإقدام بسبب الوعد ما ورد في القرآن الكريم من آيات تحكي إقداماً على أمور عظيمة وخطيرة ما كانت تقدم عليها النفس لولا حصول الوعد، كما ورد في قصة أم موسى لما رمت وليدها في اليم. وهو أمر عظيم كان الدافع الأعظم فيه تلقّيها الوعد من الله بإرجاعه إليها، قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القَصَص: ١٣].

وذلك بعد أن قال لها: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القَصَص: ٧].

والنفس تقدم على الأمر رجاء حصول المرغوب، فإذا لم يتحقق أصيبت بالإحباط، لذا كان من الخيانة والنفاق أن يعد الإنسان ولا يفي بوعده. وفي المقابل فإن من الخصال الحميدة الوفاء بالوعد، بل هي من الخصال التي تستحق الإشادة بها كما حصل في عدها من خصال النبي إسماعيل عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤]، وفي الحديث: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»**[1].

ولما علم الشيطان تمكن هذه الصفة في النفس الإنسانية وسهولة انسياقها للاستجابة من هذا الباب، فقد جعل منها باباً رئيسياً في إغوائه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب: علامات المنافق [فتح الباري (١/٧٩)] ومسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان خصال المنافق (٢/٤٦).

ويصاحب طرق باب استجابة النفس للوعد: تزيين العمل، حيث إن إلقاء الوعد في القلب من قبل الشيطان يكون بتحسين العاقبة وتزيينها، أو بتحسين العمل نفسه، والتخفيف من شأن العقوبة بالوعود، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر: ٣٩].

وقد حكى لنا القرآن حال وعاقبة من صدق وعد الشيطان واستسلم لهذا التزيين بخسران العاقبة، ونذكر من ذلك بعض الأمثلة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨]. وذلك في غزوة بدر حيث وعدهم بالنصر والغلبة إن هم أقدموا على قتال النبي ﷺ إلى أن أسلمهم لهذه المعركة ثم انسحب من الموقف ونكص على عقبيه بمعنى أنه تخلّى عن نصرتهم التي وعدهم بها بل وتبرأ منهم.

وهكذا دأبه مع أقوام الأنبياء يزين لهم حتى يتولّوه فيحق العذاب، قال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: ٦٣].

أما في صفوف المؤمنين فإن حدوث المعاصي على اختلاف درجاتها من صغائر وكبائر تحدث من المسلم بدءاً من تزيين العمل من قبل الشيطان، حيث يزين له العاقبة إما إغراءً بالمكاسب المادية، أو اللذة الحاصلة من هذه المعصية، وانتهاءً بإغرائه بالوعد بالعفو من الله والمغفرة بعد الذنب والخطيئة، حتى تحصل الاستهانة بالمعاصي فيستمر في ارتكابها.

ولخطورة هذه الوسيلة في الغواية وسوء العاقبة على الإنسان فقد كثر في القرآن التحذير من وعود الشيطان، ومقارنة ذلك بوعد الله الذي لا يكون الفلاح إلا بالعمل بمقتضاه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن

دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ولهذا فقد وصف الله وعده بالغرور، والغرور: إظهار الشيء المكروه في صورة المحبوب الحسن، والمعنى أن ما سوَّله الشيطان في حصول المرغوب إما باطل لا يقع، مثل ما يسوِّله للناس من قضاء دواعي الغضب والشهوة ومحبة العاجل دون تفكير في الأجل، وكل ذلك لا يخلو من مقارنة الأمر المكروه أو كونه آيلاً إليه بالإضرار[1].

تصديق الخبر بالقسم:

في قصة آدم تقدم إبليس لآدم في إغوائه للأكل من الشجرة المحرمة على أنه ناصح، ولجأ كذلك إلى تدعيم موقفه على أنه ناصح بالقسم على ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٢١].

ومعنى قاسمهما: أقسم لهما، والمقاسمة مفاعلة تقتضي المشاركة في الفعل، ولكن هنا كان الفعل من واحد وهو الشيطان، فربما لأنه اجتهد فيها اجتهاد المقاسم[2].

وهذا يدلُّ على أن القسم من مداخل التأثير على النفس البشرية، حيث تطمئن وتصدق الأمر إذا اقترن طرحه بالقسم. وبالتالي فإن فائدة القسم كما ذكر الزركشي: «تحقق الجواب عند السامع وتأكده ليزول عنه التردد فيه»[3]. والسبب في ذلك أن القسم والحلف: القصد منه يرجع إلى قصد أن يشهد المقسم الله تعالى على صدقه في خبر أو وعد أو تعليق، فمن أجل ذلك

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٥/١٥٥).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/٢٧٩) حيث ذكر أقوالاً أخرى في معنى المشاركة.

(٣) البرهان في علوم القرآن (٢/٣٧٤)، وانظر: الإتقان (٤/١٠٣٣).

تضمن القسم واليمين معنى قوياً في الصدق؛ لأن من أشهد بالله على باطل فقد اجترأ عليه واستخفَّ به[1].

ويذكر العلماء أنه لا يحسن القسم إلا في الأحوال التالية:

١ - أن يكون المقسم عليه ذا أهمية.

٢ - أن يكون المخاطب متردداً في شأنه.

٣ - أن يكون المخاطب منكراً له[2].

وهذا ما يبدو حصوله لآدم لما زين له الشيطان الأكل من الشجرة المحرمة بكونها سبباً في خلوده وحصوله على الملك، فبدأ تزيين الإقدام على الأكل من هذه الشجرة، ولكن ما زال التردد في نفس آدم، إلى أن عاجله بوسائل أخرى من شأنها التأثير على النفس، وهو أنه في ذلك ناصح، وأقسم على صدقه في ذلك، عندها حدثت المعصية وتمَّ الأكل من الشجرة.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢/٣٧٨) بتصرف.

(٢) أصول في التفسير للشيخ محمد بن صالح العثيمين ص ٥٢.

الخاتمة

تبيَّن من البحث ما يلي:

- من الصفات الفطرية المستنبطة من قصة آدم عليه السلام: حاجة الإنسان للمطعم والمشرب والملبس والمسكن ـ حاجته للزوج والسكن إليه ـ حبه للولد ـ الحياء ـ حبّه للتملك ـ حبه للخلود ـ خلافته ـ استعداده للتعلّم ـ فطرة الدين ـ الندم عند الخطيئة ـ ترغيبه بالثواب وترهيبه من العقاب ـ استجابته للوعد ـ استجابته للنصح ـ تصديقه الخبر بالقسم.
- ما ذكر في البحث ليس هو كل الصفات الفطرية في الإنسان، لأن البحث اقتصر على استنباط ذلك من قصة آدم فقط، وإلا فإن القرآن حوى كثيراً من الصفات الفطرية التي يمكن قيام دراسات أخرى بتخصيصها بالبحث والاستدلال.
- كل صفة فطرية لها فائدة في حياة الإنسان، ولضمان قيام كل صفة بفاعليتها التي خلقها الله لها أحاطها سبحانه بعنصري جذب ودفع، جذب من الأمام هو اللذة، ودفع من الخلف هو الألم، وهما معاً مرتبطان بكل نزعة فطرية في الإنسان، وتقوى كل من اللذة والألم أو تضعف حسب أهمية النزعة الفطرية للإنسان، ويبدو ذلك واضحاً وقوياً في نوازع الجسد مثل دافع الجوع والعطش والجنس.
- من الصفات ما يتعلق بمطالب الجسد، ومنها ما يتعلق بمطالب الروح، ولكنها تعمل جميعها بتكامل في أدائها الوظيفي، وذلك لتمازج الروح مع الجسد، وبالتالي فمتطلبات كلٍّ منها مرتبط بالآخر.
- الصفات الفطرية لا يعني كونها فطرية اتفاق البشرية في كيفية إشباعها، وذلك لكونها فطرية من حيث الاستعداد والدافع، ولكنها مكتسبة في

تشكيل كيفية الإشباع حسب أنماط الحياة في المجتمعات المختلفة.

- الصفات الفطرية المتعلقة بالجسد لا يمكن إلغاؤها أو كبتها كالأكل والشرب والملبس ونحوها. أما ما عداها فإنه يمكن للمؤثرات الخارجية أن تساهم في كبتها ولو لفترات زمنية، وشاهد ذلك إزالة فطرة الدين بالكفر، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «... **فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه**...»، لكنها قد تعود للظهور عند زوال تلك المؤثرات كما حدث للمشركين عندما واجهوا خطر الموت ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].
- الإسلام هو دين الفطرة، ومن مقتضيات ذلك أن كل أحكامه أتت مسايرة لما فطر عليه الإنسان على المنهج الأقوم لصالح الفرد والمجتمع.
- الإنسان خليفة في الأرض، فهو سيدها وعليه عمارتها بما سخر الله له من مخلوقات، وآلته في ذلك ما ركز في فطرته من الاستعداد للتعلم.
- من طبيعة الإنسان الوقوع في المعصية ثم الندم والاستغفار، وقد بدا ذلك في معصية آدم ثم استغفاره، فكان تعليماً للذرية بطبيعتها وكيفية تصحيح الحال بالاستغفار والتوبة.
- من أهم فوائد التعرف على الصفات الفطرية في الإنسان وخاصة من خلال قصة آدم معرفة مداخل الشيطان على النفس البشرية لغوايتها، وقد تبيَّن ذلك من خلال استغلال تلك الصفات.

ينبغي على الدراسات النفسية الاعتماد في دراستها أولاً على مصادر الوحي لأنها تفيد اليقين، فالاعتماد على اليقينيات أولاً يساعد في تصحيح مسار الأبحاث والتجارب والدراسات. أما بالاعتماد على الملاحظات والتجارب فقط، فإن النتائج تكون فيها عرضة للنقص والبعد عن التعميم للإنسان كطبيعة، والسبيل الأقوم تكامل المناهج في الأبحاث.

فهرس المصادر

- **الإتقان في علوم القرآن**؛ للسيوطي، الطبعة الأولى ـ الرياض ـ مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- **أدب الدنيا والدين**؛ الماوردي، الطبعة الأولى ـ دار الريان للتراث ـ الدار المصرية اللبنانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**؛ لأبي السعود ـ بيروت ـ دار إحياء التراث العربي، (د.ت).
- **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**؛ محمد ناصر الدين الألباني ـ الطبعة الأولى ـ بيروت ـ المكتب الإسلامي، ١٣٩٩هـ.
- **استخلاف الإنسان في الأرض نظرات في الأصول الاعتقادية للحضارة الإسلامية**؛ الدكتور فاروق الدسوقي ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ـ المكتب الإسلامي ـ الرياض: مكتبة فرقد الخاني، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.
- **أسس الصحة النفسية**؛ الدكتور عبدالعزيز القوصي ـ الطبعة التاسعة ـ القاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨١م.
- **الإسلام وقضايا علم النفس الحديث**؛ الدكتور نبيل محمد توفيق السمالوطي ـ الطبعة الأولى ـ جدة ـ دار الشروق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- **أصول علم النفس**؛ الدكتور أحمد عزت راجح ـ القاهرة ـ دار المعارف، ١٩٨٤م.
- **أصول في التفسير**؛ الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ القاهرة ـ مكتبة ابن تيمية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**؛ لابن القيم بتحقيق محمد حامد الفقي ـ بيروت ـ دار المعرفة، (د.ت).
- **الإنسان بين المادية والإسلام**؛ محمد قطب ـ الطبعة العاشرة ـ بيروت ـ القاهرة ـ دار الشروق، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

- **الإنسان في القرآن الكريم**؛ السعيد عاشور - القاهرة - دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨م.
- **الإنسان في القرآن الكريم**؛ عباس محمود العقاد - القاهرة - نهضة مصر، (د.ت).
- **الإنسان في القرآن الكريم**؛ الدكتور محمد لطفي الصباغ - الطبعة الأولى - بيروت - المكتب الإسلامي، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- **الإنسان وجوده وخلافته في ضوء القرآن الكريم**؛ الدكتور عبدالرحمن المطرودي - الطبعة الثانية - الرياض - دار عالم الكتب، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**؛ لأبي بكر جابر الجزائري - الطبعة الثالثة - الناشر: راسم للدعاية والإعلان، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- **الإيمان والحياة**؛ الأستاذ/يوسف القرضاوي - الطبعة الثانية عشرة - بيروت - مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.
- **البحر المحيط**؛ محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان - الطبعة الثانية - بيروت - دار الفكر، ١٤٠٣هـ.
- **البرهان في علوم القرآن**؛ الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - الطبعة الثانية - بيروت - دار المعرفة، ١٣٩١هـ.
- **بحوث في علم النفس العام**؛ الدكتور فائر محمد علي الحاج - الطبعة الخامسة - بيروت - المكتب الإسلامي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- **البناء النفسي في الإنسان (دراسة من فيض القرآن الكريم)**؛ الدكتور حمدي الفرماوي - مكتبة زهراء الشرق، (د.ت).
- **التحرير والتنوير**؛ محمد الطاهر بن عاشور - تونس - الدار التونسية، ١٩٨٤م.
- **تربية النفس الإنسانية في ظل القرآن الكريم**؛ الدكتور أحمد المقري، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- **تفسير غريب القرآن**؛ لابن قتيبة - تحقيق: السيد أحمد صقر - بيروت - دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- **التفسير الكبير للرازي**؛ الطبعة الثالثة - بيروت - دار إحياء التراث العربي، (د.ت).
- **تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار**؛ محمد رشيد رضا - الطبعة الثانية - بيروت - دار المعرفة، (د.ت).

- **تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم**؛ تحقيق: أسعد محمد الطيب ـ الرياض ـ مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- **تفسير القرآن العظيم**؛ لابن كثير ـ القاهرة ـ كتاب الشعب، (د.ت).
- **جامع البيان عن تأويل القرآن**؛ الطبري، حقَّقه وعلق حواشيه: محمود محمد شاكر، وخرج أحاديثه: أحمد محمد شاكر ـ الطبعة الثالثة ـ مصر ـ دار المعارف ـ توزيع مكتبة دار التربية والتراث، (د.ت).
- **الجامع لأحكام القرآن**؛ القرطبي ـ بيروت ـ دار إحياء التراث العربي، (د.ت).
- **دراسات في النفس الإنسانية**؛ محمد قطب ـ الطبعة الخامسة ـ بيروت ـ القاهرة ـ دار الشروق، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- **دراسات قرآنية**؛ محمد قطب ـ بيروت ـ القاهرة ـ دار الشروق، (د.ت).
- **زاد المسير في علم التفسير**؛ لابن الجوزي ـ الطبعة الرابعة ـ بيروت ـ دمشق ـ المكتب الإسلامي، ١٤٠٧هـ.
- **سنن ابن ماجه**؛ حققه وعلق عليه محمد فؤاد عبدالباقي ـ القاهرة ـ دار إحياء الكتب العربية، (د.ت).
- **سنن الترمذي** (وهو الجامع الصحيح)؛ لأبي عيسى الترمذي بتحقيق: أحمد شاكر ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٣٩٨هـ.
- **شعب الإيمان**؛ للبيهقي، تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ.
- **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**؛ لابن القيم ـ بيروت ـ دار المعرفة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- **صحيح سنن ابن ماجه**؛ خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني ـ الطبعة الأولى ـ الرياض ـ مكتبة التربية العربية لدول الخليج، ١٤٠٩هـ.
- **صحيح الجامع الصغير**؛ محمد ناصر الدين الألباني ـ بيروت ـ المكتب الإسلامي، (د.ت).
- **صحيح مسلم بشرح النووي**؛ الطبعة الثالثة ـ بيروت ـ دار الفكر، ١٣٩٨هـ.
- **الضوء المنير على التفسير**؛ لابن القيم، جمعه علي الحمد الصالحي ـ الرياض ـ مؤسسة النور للطباعة والتجليد (عنيزة) بالتعاون مع مكتبة دار السلام، (د.ت).

- **عالم الجن والشياطين**؛ الدكتور عمر سليمان الأشقر ـ الطبعة الثالثة ـ الكويت ـ مكتبة الفلاح، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- **عالم الملائكة والأبرار**؛ الدكتور عمر سليمان الأشقر ـ الطبعة الثالثة ـ الكويت ـ مكتبة الفلاح، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- **علم النفس المعاصر في ضوء الإسلام**؛ الدكتور محمد محمود محمد ـ الطبعة الثالثة ـ جدة ـ دار الشروق، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**؛ لابن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه: محمود فؤاد عبدالباقي ـ المكتبة السلفية، (د.ت).
- **في ظلال القرآن**؛ سيد قطب ـ الطبعة العاشرة ـ القاهرة ـ بيروت ـ دار الشروق، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- **القرآن وعلم النفس**؛ الدكتور محمد عثمان نجاتي ـ القاهرة ـ دار الشروق، ١٩٨٢م.
- **القرآن وقضايا الإنسان**؛ الدكتورة/عائشة عبدالرحمن، بنت الشاطىء ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت ـ دار العلم للملايين، ١٩٧٨م.
- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**؛ الزمخشري ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.
- **الكون والأرض والإنسان في القرآن الكريم**؛ رجا عبدالحميد عرابي ـ الطبعة الأولى ـ بيروت ـ دمشق ـ دار الخير، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- **لسان العرب**؛ لابن منظور ـ بيروت ـ دار صادر، (د.ت).
- **مجاز القرآن**؛ أبي عبيدة معمر بن المثنى، علّق عليه د/محمد فؤاد سزكين ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت ـ مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ.
- **مجموع الفتاوى**؛ ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي ـ الرياض ـ نشر وتوزيع إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، (د.ت).
- **المحرر الوجيز**؛ لابن عطية، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- **مختصر منهاج القاصدين**؛ ابن قدامة ـ الطبعة الرابعة ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

- **المستدرك على الصحيحين**؛ الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للذهبي - بيروت - دار المعرفة، (د.ت).
- **المسند**؛ الإمام أحمد - بيروت - دار صادر - والمسند بتحقيق أحمد شاكر.
- **مصائب الإنسان من مكائد الشيطان**؛ لابن مفلح المقدسي الحنبلي - الطبعة الأولى - بيروت - دار الكتب العلمية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- **معاني القرآن**؛ للفراء - الطبعة الثالثة - عالم الكتب، ١٤٠٣هـ.
- **معاني القرآن وإعرابه**؛ للزجاج، تحقيق: الدكتور عبد الجليل عبده شلبي - الطبعة الأولى - بيروت - عالم الكتب، ١٤٠٨هـ.
- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن**؛ وضعه محمد فؤاد عبدالباقي - الطبعة الثانية - القاهرة - دار الحديث، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- **معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنة** - علم النفس مجمع البيان الحديث؛ سميح عاطف الزين - بيروت - دار الكتاب اللبناني - القاهرة - دار الكتاب المصري، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- **مفاهيم علماء النفس (دراسة وتقويم) رؤية إسلامية**؛ هشام البدراني - الطبعة الأولى - عمّان - دار البيارق، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- **مفتاح دار السعادة**؛ لابن القيم - بيروت - دار الكتب العلمية، (د.ت).
- **المفردات في غريب القرآن**؛ للراغب الأصفهاني - بيروت - دار المعرفة، (د.ت).
- **النظام الاقتصادي في الإسلام: مبادئه وأهدافه**؛ الدكتور أحمد العسال والدكتور فتحي عبدالكريم - الطبعة الثانية - القاهرة - مكتبة وهبة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
- **النكت والعيون (تفسير الماوردي)**؛ لأبي الحسن الماوردي، علّق عليه السيد عبدالمقصود بن عبدالرحيم - بيروت - مؤسسة الكتب الثقافية - دار الكتب العلمية، (د.ت).
- **النهاية في غريب الحديث والأثر**؛ لابن الأثير، تحقيق: أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي - بيروت - دار إحياء التراث العربي، (د.ت).
- **الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز**؛ أبي عبدالله الحسين بن محمد الدامغاني - تحقيق: محمد حسن أبو العزم الزفيتي - مصر - لجنة إحياء التراث - وزارة الأوقاف، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی